الموسم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

مجلة الموسم (العدد 14) – 1993 – 1413

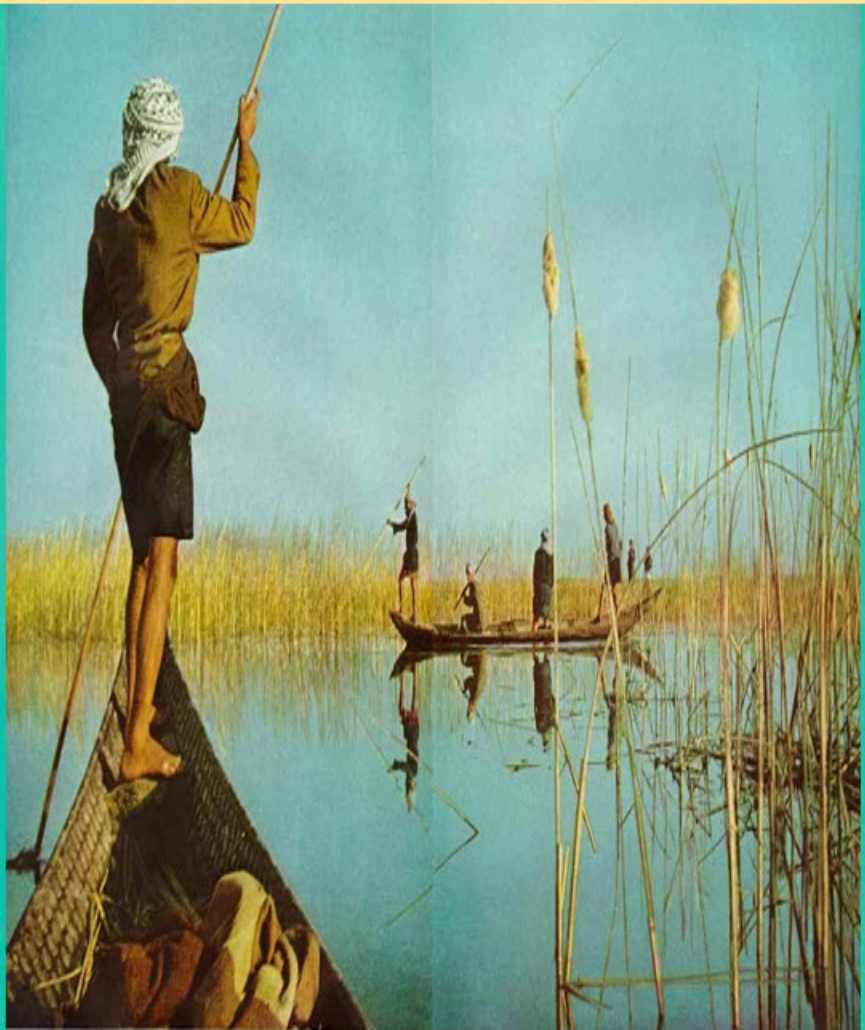

الاموليم

مجلة فصلية مصورة تعنى بالآثار والتراث

صاحبها ورئيس تحريرها

محمد سعيد الطريحي

Shiabooks.net

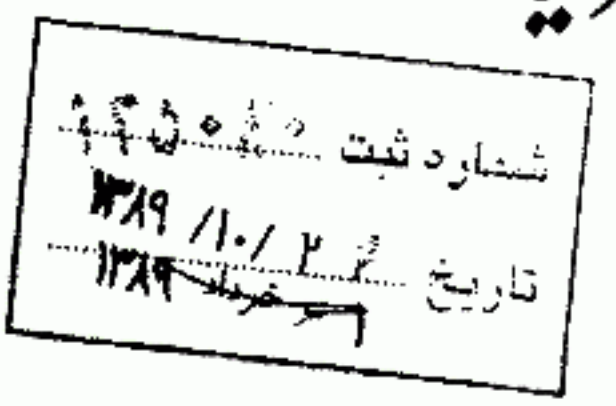

جميع الحقوق محفوظة ومسجلة

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ترسل جميع المراسلات والطلبات بإسم صاحب المجلة الى :

المركز الوثائقي لتراث اهل البيت عليهم السلام

اكاديمية الكوفة

هولندا

AL KUFA HOUSE POST BUS 1113
3260 AC OUD - BEIJRLAND
HOLLAND

الاشتراك السنوي للأفراد ٥٠ $ وللمؤسسات ١٠٠ $.

مذكرات ضابط عراقي

الرئيس الأول الركن محمد حسن الطريحي

تحقيق

الدكتور محمد حسين الزبيدي

نقلاً عن المخطوطة الفريدة المحفوظة في مكتبة جامعة ليدن ـ هولندا

تحت رقم 22.947

Universiteits bibliotheek Leiden (HOLAND)

الأسرة والنشأة

ينتسب «آل طريح» إلى الصحابي الجليل حبيب بن مظاهر الأسدي ، المستشهد مع الامام الحسين بن علي بن ابي طالب «عليه السلام» في واقعة كربلاء الشهيرة سنة ٦١ هـ .

وقبيلة «بني أسد» من القبائل العربية الاصيلة والشهيرة ، واليها ينتمي «الطريحيون» الذين عرفوا في الفرات الاوسط من العراق ، وبزغ نجمهم مع ظهور الدولة المزيدية الأسدية في بابل ، وبادر أحد الاجداد وهو الشيخ داود الاسدي مع طائفة من العشيرة بالنزوح إلى النجف الاشرف رغبة في مجاورة مرقد الامام علي بن ابي طالب عليه السلام ، فاتخذوا مساكنهم في المحلة التي عرفت باسمهم «محلة آل طريح» ثم عرفت فيما بعد باسم «محلة البراق» كما شيدوا جامعاً قرب مساكنهم يعرف حتى الآن بـ «جامع آل الطريحي» واشتهر امرهم في البلد فآلت اليهم سدانة المشهد العلوي والولاية العامة في النجف في القرن السادس الهجري ، ونبغ منهم عدد كبير من الفقهاء والعلماء والادباء والشعراء الذين خدموا العلوم والآداب العربية والاسلامية خدمات جلى كما تشهد على ذلك كتبهم وآثارهم ، ومن اشهر علمائهم الشيخ فخر الدين الطريحي (٩٧٩ ـ ١٠٨٥ هـ) صاحب كتاب «مجمع البحرين» في اللغة .

وفي نفس الدار التي عاش فيها ودفن بها الشيخ فخر الدين الطريحي ، ولدت في ١٢ تموز سنة ١٩٠٨ م ، وحين بلغت الرابعة من عمري توفي والدي الحاج حسن الطريحي وكان ممن يتعاطى التجارة ، فتعهدني خالي الشيخ سعيد الطريحي بالرعاية والاهتمام وكنت وحيد امي حيث توفيت لي أختان قبلي ، ولما بلغت الخامسة دخلت احد الكتاتيب ، وكان صاحبها الملا «الشيخ عطية» فتعلمت على يديه القراءة والكتابة ، وتعلمت الخط العربي وتجويده عند جارنا المرحوم «عبود العبادي» الذي كان متخصصاً في كتابة الحجج للدور وهي «الحجج» التي كانت تقوم يومها مقام سند «الطابو» اليوم . ثم ختمت القرآن الكريم على يد المرحومة والدتي .

ولم يكن آنذاك في النجف سوى مدرستين ، الاولى : للجالية الايرانية ، والثانية : لاولاد الموظفين الاتراك ، وكان الناس يحجمون عن ادخال اولادهم في تلك المدرستين خوفاً من ان المدرسة التركية كانت تهيء الطلاب الى الشؤون العسكرية ، والاخرى تدرسهم باللغة الفارسية التي لا يحسنها التلاميذ ولا ينتفعون منها ولهذا كان الناس يرسلون اولادهم الى الكتاتيب التي كانت تتخذ من «المساجد» مكاناً لتعليم القراءة والكتابة وتعلم الخط ودراسة القرآن الكريم وبعض مبادىء الدين كتعليم الصلاة وغيرها .

سور النجف

من الامور التي كانت تلفت نظر الزائرين الى (النجف) آنذاك هو سورها الكبير الذي كان يحيط بها من جميع الجهات ، وسبب بناء هذا السور هو أنّ النجف تقع على حافة البادية وكانت قبائل البدو كثيراً ما تهاجم البلدة فتسلب وتنهب وتعيث فيها فساداً ولم تكن الحكومة العثمانية قادرة على رد هذا الغزو المستمر من الصحراء ، فأجمع اهل النجف امرهم على بناء سور للمدينة يقيهم غزوات البدو ويحمون بذلك ارواحهم وممتلكاتهم ، ويحافظون على الخزائن النادرة في المرقد العلوي الشريف ،

المملوء بالنفائس والاحجار الكريمة التي لا تقدر بثمن ، وقد شرعوا بنباء السور سنة (١٢٣٩ هـ ـ ١٨٢٣ م) وصرفوا على بنائه ١٩٦ الف ليرة ذهبية وممن ساهم في تحمل نفقات تشييد السور ، الحاج محمد حسن الاصفهاني رئيس وزراء السلطان فتح علي شاه .

شيدالسور على شكل قلعة على غرار القلاع العسكرية التي كانت تُشيّدُ في اوربا في العصور الوسطى ، ويتكون من ثمانية عشرة ضلعاً مبني من ثلاث طوابق ، الطابق الارضي : أُعدَّ للمؤن والاعتدة ، والطابق الاوسط : لاستراحة المحاربين ، والطابق العلوي : للدفاع . وجعلت فيه ابراج ومواضع للمدافع والبنادق والرصد .

أبواب السور

وبنيت له بوابتان في اول الامر وهما :

١ ـ الباب الكبير : وكانت تقابل الطريق المؤدية الى مدينة الكوفة .

٢ ـ باب الثلمة : في الجهة الغربية بالقرب من مقام الامام زين العابدين .

وفي سنة ١٢٨٨ هـ فتح للسور باب ثالث من جهة القبلة عرف بـ «باب السقائين» أو «باش تابية» وهذه لفظة تركية تعني «الرابية» وصارت تسمى بأسم «باب اشتابية» تصحيفاً وقد فتح هذه الباب التاجر الحاج عبد السميع الاصفهاني في عهد السلطان العثماني عبد العزيز .

وكانت هذه الأبواب تفتح عند صلاة الفجر وتغلق عند غروب الشمس .

أبراج السور

اما أبراج السور فكان العامة يدعونها «القرلة» وهي كلمة تركية ومنها «القولجي» أي حارس الليل .

وقد اقترنت هذه الأبراج باسماء معروفة في النجف مثل «قولة خطار العبد» التي تقع في محلة العمارة ، و«القولة التركية» التي تقع في محلة المشراق في موضع مدرسة الغري الاهلية التي هدمت مؤخراً واصبحت ضمن (ساحة الامام علي) .

قولة ام السبع

:

راهم هذه الابراج هي «قولة ام السبع» وذعيت بهذا الاسم اخذاً من الاسطورة الشائعة عند العامة من أن اسداً يأتي بعد غلق الابواب ليلة كل جمعة ويتسلق «القولة» وينادي «يا علي ـ يا علي ـ يا علي» ثلاث مرات .

وحقيقة الامر ان درويشاً كان يلبس فروة سبع ويعتلي القولة وينادي بصوت جهوري (يا علي) ثلاث مرات ويختفي ، وهذا اصل الحكاية .

الدراويش

وفي الحقيقة ان هذا العمل هو جزء من الدعاية التي كان يقوم بها الدراويش الاتراك والفرس لنشر المذهب الشيعي ، حيث اسست في العهد الصفوي عدة خانقاهات ترعاها الدولة وتوقف لها

الاراضي والبساتين للصرف عليها وعلى الدراويش الذين يقطنون فيها ، وكان هؤلاء الدراويش يتجولون في المدن والقرى والارياف وينشدون الاشعار بصوت شجي في مدح اهل البيت ، وكانوا يرتدون لباساً خاصاً يلفت الانظار ، ويرسلون شعر رؤوسهم ويضفرونه على شكل ضفيرة واحدة تتدلى على ظهورهم ، ويضعون على رؤوسهم طربوشاً ابيضاً من القماش الثمين وهو أشبه بالطرطور الذي يرتديه «البكداشية» وحوله حزام من خيوط الحرير الاسود تنتهي نهايتها مع الضفيرة . ويتمنطقون بحزام مزركش في وسطه نصف كرة زجاجية تبهر الأبصار ، ويحملون في ايديهم كشكولاً وبلطة ، وبعضهم يحمل على ظهره جلد النمر أو سواه من الوحوش لتزداد هيبته في عيون الناس ويستخدمونها أيضاً للجلوس عليها . وكانوا يوزعون الرياحين على الناس وبهذه الطريقة يستميلونهم الى جانبهم ويستأثرون باهتمامهم ، والناس يرمون عليه النقود فيجمعونها ويوزعونها على الفقراء والمحتاجين ، لانهم غير محتاجين له فقد كانت لهم جرايات خاصة من الاملاك الموقوفة على الخانقاه .

وتحولت «الخانقاه» فيما بعد الى تكايا للذكر ينشدون فيها الاناشيد الصوفية من شعر مولانا جلال الدينَ الرومي والعطار وغيرهم ، والى اليوم توجد تكية في الصحن العلوي الشريف تعرف بـ (تكية البكداشية) .

الزورخانه

وبجانب هذه التكايا أسس الصفويون «الزورخانه» وهي لفظة تركية وفارسية تعني «بيت القوة» والزورخانات ، بيوت لتدريب الشباب على المصارعة والرياضة العنيفة ، استخدمها الصفويون لإعداد الشباب جسمانياً لصد الغزو التركي ، وبقيت هذه الزورخانات منتشرة في ايران حتى اليوم ، ووصلت الطريقة الى العراق فكانت تقام في النجف في محلات مقفلة في وسطها حفرة مليئة بالطين الرخو ، وتستخدم في هذه الرياضة ادوات حديدية وسلاسل واثقال مختلفة الاحجام .

وقد اتخذت من (قولة ام السبع) في الطابق الارضي ، و(قولة محلة المشراق) زورخات للرياضة البدنية حيث كان بعض شباب النجف يمارسون الرياضة فيها وفي نفس الوقت الذي كانت تقام فيه هذه الرياضة كان هنالك شخص يجلس فوق محل مرتفع يضرب على رق كبير الحجم وينشد في الوقت ذاته اناشيد في مدح آل البيت ، كل هذا يجري على انغام عذبة تصاحب حركات الرياضيين وفي طرف من المكان كان هنالك شخص آخر يحرق البخور المندية فيتعطر الجو ويأنس بذلك الناس ويقضون الاوقات العلية .

الخندق

احيط سور المدينة بخندق عمقه ثلاثة امتار وعرضه حوالي عشرة أمتار ، ويقال ان النيران كانت توقد فيه عند الضرورة لابعاد المهاجمين عن تسلق السور أو اختراقه .

المقلاب

وهناك خارج السور موضع يسمى المقلاب ، وهي تلال تكونت من الاتربة التي تستخرج من حفر السراديب العميقة التي تسمى «السن» التي قد يبلغ عمقها نحو عشرين متراً تحت الأرض ، ويقع المقلاب عند باب محلة العمارة .

مشكلة الماء

تقع النجف على مرتفع من الارض بعيد عن الماء مما سبب لها مشكلة مزمنة بسبب صعوبة نقل المياه الصالحة للشرب الى المدينة وانعكس ذلك على ابناء البلدة لشدة ما كانوا يعانونه من تلك المشكلة كما ظهر اثره في ادبهم حتى قال الشاعر النجفي احمد الصافي مخاطباً النجف ومداعباً :

جلست على الانهار يلدان الورى فعلام انتِ جلست في الصحراء

وعلى جهة (الحيرة) المتاخمة لحدود النجف كانت هناك ساقية صغيرة يستقي النجفيون منها وكان تتفرع من نهر الفرات القادم من بلدة (ابي صخير) وكان السُقاة ينقلون الماء بالقرب المحملة على الحمير ويبيعونه الى البيوت ، حيث يحفظ الماء في «احباب» كبيرة في السراديب .

إلا ان هذه الساقية كثيراً ما كانت تدفن بالرمال العاصفة القادمة من الصحراء المحيطة بالنجف ، وعند ذلك يضطر السقاة الى جلب المياه من نهر الفرات في (الكوفة) عند (رأس الجسر) ، وقد تعاونهم في ذلك (شركة الكاريات) التي تعمل بين الكوفة والنجف وينقل الماء بواسطة خزانات كبيرة (تنكرات) وتباع على الاهالي ، أما الفقراء فتوزع عليهم بالمجان ، وهكذا كانت النجف دائماً في أزمة ماء خانقة ومستمرة .

بحيرة النجف

كان خارج النجف منخفض ملحي كبيرهو بقايا بحيرة النجف التي جفت منذ زمن لم نشهده ، ويحيط بالبحيرة كهوف صغيرة ضاربة في القدم تعرف عندنا بأسم «الطارات» وكان النجفيون يستخرجون من بقايا البحيرة الملح الذي يستعملونه للطعام .

آبار النجف

وفي كل بيت نجفي تجد بئراً وجميع مياه آبار النجف مالحة لا تستعمل إلا للغسيل والتنظيف وتبريد الفاكهة كالرقي والبطيخ ، وقد يشرب منه البعض مضطراً بعد غليه .

سراديب السن

مرت الاشارة قبل قليل لهذه السراديب ، حيث يحفر البئر مجاوراً للسرداب للتهوية حيث يأتي منها هواء بارد لا يقل برودة عن هواء المكيفات الحديثة المستوردة في هذه الأيام ، وقد يحدث ان يكون في البيت المجاور سرداباً آخر فيتم فتح نافذة عليه وبذلك تكون وسيلة اتصال بين السراديب ، ويقال ان بعض السراديب تتصل بالآبار القديمة الماثلة حتى الآن على طريق الحج البري المعروفة باسم السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد .

وقد أفاد ثوار النجف في حركة ١٩١٨ المسلحة ضد الاحتلال البريطاني من هذه الآبار فأختفوا بها وصعب على المراقبين العثور عليهم .

المقابر متنزه النجفيين

وفي خارج السور تمتد مقبرة «وادي السلام» من اكبر المقابر في العالم وتقع في أول الطريق السالك من النجف الى كربلاء ، وهي متنزه النجفيين الوحيد . وهناك زيارة خاصة يزار بها الموتى محفورة على

المرمرعند باب السور حيث يأتي الناس عادة في ليالي الجمع لزيارة مقام الامام المهدي ومقام التابعي الشهير كميل بن زياد النخعي ، وزيارة موتاهم وقراءة الفاتحة على ارواحهم وتوزيع الخيرات للفقراء الملازمين هناك طلباً للثواب .

وكانت بعض الاسر النجفية تدفن موتاها بجانب دورها السكنية كما هو الحال مع الشيخ فخر الدين الطريحي والذي دفن في دارة وأخرج شباك للمزار على الطريق .

ثم شاع اتخاذ الأسر والعائلات مقابر مخصوصة بأفرادها ، وكثير من الناس يتبركون بدفن موتاهم في الصحن الشريف ويدفعون لقاء ذلك اجرة عالية تعود الى خزينة الدولة باسم «الدفنية» وكانت هذه الدفنية تؤجر للناس من قبل دائرة الاوقاف ، واذكر ان الارضروملي أحد البغداديين وصديق لنوري السعيد ، استأجر هذه الدفينة من الحكومة فعادت عليه بالنفع العميم والمبالغ الطائلة .

بيوت النجفيين

كان البيت النجفي يقسم الى قسمين : (الدخلاني) وهو خاص بالسكن العائلي و(البراني) وهو خاص بالضيوف ، وكانت تعقد في بعض بيوتات النجف الندوات العلمية والادبية وتجري فيها المساجلات الشعرية والمباريات الفكرية وهذه البيوتات : آل الطريحي ، وآل الجواهري ، وآل كاشف الغطاء ، وآل الجزائري ، وآل بحر العلوم ، وآل الدجيلي ، وبيت البراقي ، وبيت الشيخ جواد الشبيبي . . وغيرها من بيوتات العلم في النجف ، وكان يحضرها الصبية أيضاً ، وتقام فيها أيضاً المآتم الحسينية وحفلات الشعر الخاصة بالزواج والختان وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية .

ومن عادة النجفيين تأخير تناول العشاء في الليل بانتظار ما قد يُسفر به الليل من ضيوف يأتون برفقة الجنائز للدفن ، حيث لم يكن هناك مطاعم لتقديم الطعام ولا خانات أو مسافر خانات أو فنادق للقادمين يأوون اليها عدا بعض البيوت التي يؤجرها خدم الروضة الحيدرية للزائرين من خارج العراق .

ثورة النجف

ثورة النجف

بعد أن احتلت بريطانيا العراق عينت الكابتن (مارشال) حاكماً عسكرياً لمدينة النجف يعاونه في ذلك عدد من الشرطة الفيلية ، وقد أعلن هذا الحاكم عداءه للنجفيين منذ اللحظة الأولى من وصوله المدينة ، فكان يقوم بزيارات يومية لمعالم المدينة ويتمشى في أزقتها مُعلناً الإهانة متوعداً الأهالي بالعقاب ، واتخذ مقر عمله في (خان عطية أبو گلل) خارج السور ، وكان الناس يدعون مقره باسم «الحفيز» وهي تحريف لكلمة «أوفيس Office» الانكليزية ، وكان يسير بخيلاء في أسواق النجف يتقدمه أحد خدمه يلبس طربوشاً عالياً وكبيراً يجلب النظر وبيده عصا غليظة ويصرخ بأعلى صوته باللغة الفارسية (واز كنار) أي تنحى وقف جانباً ، ويأمر الناس بأخذ التحية والإنحناء للحاكم مارشال ، وكان الناس الذين يجلسون في دكاكينهم يضطرون للقيام للكابتن مارشال ، وإذا تلكأ أحدهم عن الوقوف يبادره الخادم بضربة مرجعة من عصاه الغليظة ، وكان يمر على كثير من أهل السوق القيام لهذا المتجبر الغريب فيتشاغلون وهم وقوف بتعديل ما في دكاكينهم من حاجيات ، وأتذكر أنني كنت في تلك الفترة صغيراً وأعمل في مساعدة أحد تجار القماش من معارف عائلتي وهو البزّاز رشيد كبه ، وكنت

ألحظه يتشاغل برفع أطوال القماش الخام ويغير من مواضعها في رفوف الدكان تجنباً من الوقوف للحاكم ، وكان هذا الحاكم يقوم بين الحين والآخر بزيارة (حميد خان) ابن (أسد خان) وهو ابن عمة آغا خان رئيس الطائفة الاسماعيلية حيث أن والدة أسد خان شقيقة محمد شاه بن علي شاه الملقب آغا خان الثالث ، عُين حميد خان عند الإحتلال معاوناً للحاكم العسكري (السياسي) في الديوانية وفي الحكم الوطني عُيّن متصرفاً للواء كربلاء وهو من خريجي جامعة علي گره في الهند ، وانتخب مرة نائباً عن النجف في عهد الملك فيصل الأول .

كما كان الحاكم يزور الإمام السيد كاظم اليزدي مما جعل بعض الناس ينفضون عن السيد اليزدي .

المهم أن عجرفة الحاكم أثارت حفيظة النجفيين ضده وضد الاحتلال البريطاني في الوقت نفسه ، فاجتمع جمهرة من الشباب النجفي واجمعوا أمرهم على القيام بثورة مسلحة ضد الاحتلال بدءاً باغتيال الكابتن مارشال ، وكان خطة الاغتيال تتلخص بمهاجمة (الحفيز) مقر الكابتن وغلق باب غرفة الحرس عليهم وقتل الكابتن ، ونفذت الخطة فهوجم مقر الكابتن وأقفل الثوار باب خزانة الأطعمة ظناً منهم أنه مقر الحرس ، فأحس الحرس بالثوار وجرت مناوشة بالأسلحة فيما بينهم استطاع في نهايتها الثوار اغتيال الكابتن (مارشال) ، وحين سمع الانكليز بذلك ، أرسلوا جيشاً كبيراً من الهنود مجهزاً بالمدافع لمحاصرة النجف ، فحاصر الجيش المدينة وأحاط بها وأغلقت أبواب السور ، وصادف أن هذه الحركة كانت خلال زيارة الدخول (أول الربيع) حيث يؤم النجف في هذه المناسبة آلاف الزوار من كل أنحاء العراق ، فحوصروا أيضاً في المدينة وصاروا ينامون في الطرقات والمساجد ويستضافون في بعض البيوت .

وقُطعت مياه الشرب نهائياً عن المدينة مما اضطر الأهلون أن يقتروا على أنفسهم من المياه المخزونة لديهم فيمزجونها بمياه الآبار المالحة ، وصادف أن أمطرت السماء ـ في غير موسمها المعتاد ـ فاستبشر الناس لذلك وجمعوا ما لديهم من أوان وصحون وقدور لجمع هذه المياه وجمعت حتى المياه التي كانت تأتي من سطوح الدور بواسطة (المرازيب) .

أما اللحوم والخضرة فكادت أن تكون معدومة ، وكان الغذاء الرئيسي هو التمر والرز المسلوق ، وحتى قيل أن حماراً انتقده الناس ، ثم تبين لهم أن أحد الاسكافية قد ذبحه وباع لحمه للناس دون علمهم .

وقد دام الحصار أربعين يوماً ، ولم تتمكن المدافع أن تحدث أيّ ثغرة في سور النجف مما جعل القادة الانكليز يفكرون بطريقة أخرى للسيطرة على المدينة فحاولوا الزحف على (المقلاب) وهو تلال تطل على النجف وقد مرّ ذكرها ، وكان النجفيون يتناوبون الحراسة عليها لصد المهاجمين الانكليز وجنودهم الهنود .

وصادف أن هبت عاصفة ترابية على المرابطين على (المقلاب) من النجفيين ، فتعذرت عليهم الرؤية ، واستغل الانكليز هذه الفرصة وزحفوا على الحراس وقتل عدد منهم ومما أذكره أن أحد المدافعين عن التل (محمد الطريحي) من أقاربنا أُصيب بطلق ناري في فخذه وقد جلبوه إلى داره المجاورة

لدارنا في محلة (البراق) وأتذكر أن والدتي حاولت إخراج الرصاصة من فخذه بسكين من سكاكين المطبخ وكمدت الجرح البليغ بصوف محروق لكنه توفي لكثرة ما نزف من دمه من هذا الطلق الناري .

وحين استولى الإنكليز على التلين المشرفين على النجف (المقلاب) وضعوا مدافعهم عليه وهددوا بضرب مرقد الإمام علي إذا لم تستسلم البلدة ، مما اضطر الثوار والأهالي إلى إلقاء أسلحتهم وفتح الأبواب فدخل الجنود إلى داخل السور ، وفرض الإنكليز غرامة مالية كبيرة على البلدة حوالي ٥٠ ألف روبية ، وألف بندقية ، وتسليم الثوار الذين اختفوا في داخل سراديب النجف ودهاليزها ، وأرسلت السلطات المحتلة على بعض وجوه المدينة وطلبت منهم تسليم الثوار بعد إعطائهم الأمان ـ ولا أمان لهم ـ وإلا ضربوا المدينة ، الأمر الذي دعا الثوار إلى المبادرة بتسليم أنفسهم ، وحين سلّم الثوار أنفسهم فتح الإنكليز باب السور الكبير ليخرج الزوار الذين حوصروا في المدينة طيلة الأزمة ، ويقال إن الإنكليز ساقوا الثوار مربوطين بالحبال تجرهم الخيل إلى إحدى الخانات في الكوفة حيث نصبت هناك المشانق وأعدموا دون محاكمة ، وقد تمكن أحد الثوار وهو (عباس الخليلي) من الهروب إلى إيران .

رشنق بعض الثوار في كري سعدة في طريق الكرفة ـ النجف وبقيت المشانق المنصوبة هناك فترة من الزمن لإرهاب الناس وبث الرعب في نفوسهم .

ولما حقق الانكليز مطالبهم سمحوا بدخول المؤن والأطعمة والمواد الغذائية إلى المدينة كما سمحوا للسقائين بتزويد الناس بمياه الشرب .

ومما أذكره في تلك الأيام أن الجنود من المسلمين الهنود الذين كانوا يحتلون السور المجاور لمحلة الطريحيين كانوا يسمحون للأهالي بالتقرب منهم والمقايضة بإعطائهم الشاي مقابل المسابح والمصاحف القديمة التي كانت تُهدى إلى خزانة جامع الطريحي .

ومن ذكرياتي المؤلمة في هذه الفترة إنني كنت ألعب في سطح دار خالي الشيخ سعيد الطريحي مع قريب لي وهو (شريف الطريحي) وكان سطح الدار عالياً يشرف على السور فأطلق الجنود علينا النار وأصيبت بجرح في (حنكي) بينما أصابت صاحبي رصاصة خرقت أنفه وقلعت عينه وظل مصروب العين طيلة عشرين عاماً ، وقد خفت أن أذهب إلى أهلي فتحولت إلى بيت جيراننا (عباس الرماحي) فداوتني أمه على الطريقة القديمة وهي الكي بالصرف لإيقاف النزيف وترك الجرح أثراً ماثلاً حتى الآن .

و(عباس الرماحي) هو أحد الثوار الذين تتلمذ الانكليز مع أخيه (علوان الرماحي) وأتخطر أن والدتهم ـ التي ضمدت جراحي كما أشرت ـ حين علمت بمقتل ولديها أخذت تهرول وتصرخ وتمزق ثيابها وبندقية وصارت تلقي أناشيد الحماس في الساحة التي أمام بيتها لتجمع أصدقاء أولادها من الرماحيين وغيرهم وتبث فيهم الحماس للثأر من المعتدين .

ولما استتب الأمر للمحتلين شكلوا حكومة لتمشية مصالح الناس ، كما أنها شكلت محكمة أغلب موظفيها من بقايا العثمانيين إلا واحداً منهم وهو (صالح جبر) الذي جاء من الناصرية وأصبح كاتباً في هذه المحكمة ، وكان يرأس المحكمة رجل هندي اسمه المحامي (. . . خان بهادر) وقد قدم من البصرة ، فكان يقيم في النجف يوم أو يومين ثم ينتقل إلى كربلاء فالحلة وهكذا .

ثورة العشرين والأسرى الانكليز في النجف

على الرغم من صغر سني أيام ثورة العشرين فإنني ما زلت أتذكر بعض الأحداث التي بقيت عالقة في ذهني ومن ذلك أن الثوار أسَّروا مجموعة من الإنكليز في المعارك التي جرت في الفرات وكان الأسرى من بقايا كتيبة مانشستر التي أُبيد معظمها في الثورة وهرب قائدها إلى الحلة .

وقد جيء بالأسرى حفاة وبملابسهم العسكرية الممزقة المغطاة بأتربة المعارك ، ووجوههم شاحبة كالحة يعلوها الذل والهوان والانكسار ، ووضعهم النجفيون في «خان الشيلان» ويومها صدر في النجف منشور مؤرخ في ١٢ ذي القعدة ١٣٣٩هـ ـ ٢٨ تموز ١٩٢٠ جاء فيه :

«لقد جيء قبل أمس بالأسرى من الكفل إلى النجف والكوفة وكان عددهم ١٤٤ منهم ٨٠ بريطانياً فيهم ضابطان ، و٦٦ هندياً بين مسلم وثني وسيخي»

فخرج الناس إليهم ووكل العلماء والنواب والأشراف والرؤساء بهم من يتعهدهم ويقضي حوائجهم فزار المسلمون منهم حرم الإمام علي ثم سُيّروا مع رفاقهم إلى الكوفة في عربات «التراموای» التي كانت قائمة يومذاك بين الكوفة والنجف ، ووقف بحراستهم ثلة من رجال الحفر الوطني ، ثم نقلوا إلى (الحيرة) ووضعوا في دار السيد هادي زوين ، ثم أعيدوا ثانية إلى النجف ووضعوا مرة أخرى في «خان الشيلان» .

وهذا الخان بناه أحد الأغنياء الايرانيين ليكون مقاماً للزوار الذين يفدون لزيارة الإمام علي ، وهو بناية كبيرة مكونة من طابقين شيد بالآجر ولم تكن به أبواب وشبابيك فقد قلعت قبل الثورة وتقدر مساحته بحوالي ألفي متر مربع وارتفاعه اثنا عشر متراً .

ونرجع للأسرى الذين تولت إدارة الثورة شؤونهم وتدبير أمورهم ، ولقي الأسرى معاملة إنسانية من قبل الثوار ، أخذاً بتوجيهات الهيئة العلمية في النجف حيث طلب الإمام شيخ الشريعة من الحاج عبد المحسن شلاش أن يذهب إلى الحيرة للعناية بهم فذهب إلى هناك وأناب عنه في الحيرة السيد عبدالرضا الصافي للإشراف عليهم .

وحين أُعيد الأسرى إلى النجف ـ كما أشرنا ـ أُلفت لجنة خاصة للإشراف على شؤون الأسرى ، وسميت باسم «هيئة شؤون الأسرى» وكانت تتألف من : الإمام الشيخ عبد الكريم الجزائري ، والحاج عبد المحسن شلاش ، وهادي جلو ، والشيخ عبد الحسين الحلي الذي عُين سكرتيراً للهيئة .

وقد راجت إشاعات في أوساط النجف أن الحاج عبد المحسن شلاش يُنفق على الأسرى بناء على اتفاق سابق بينه وبين الانكليز ، وأمام هذه الشائعات امتنع الحاج عبد المحسن شلاش من الأنفاق عليهم . وصار الأسرى في حالة يرثى لها من الجوع والحرمان وصاروا يستجدون المارّة حيث يدلون صفائحهم بالحبال من الفتحات الموجودة في الخان فيعطف عليهم الناس ويلقون في تلك الصفائح الدراهم والمآكل والسكاير والصابون وما تجود به نفوسهم .

وإذكر أنني شاهدت أحد الأسرى الإنكليز وقد أدلى بحبل طويل من الطابق العلوي إلى الأسفل حيث كانت امرأة محجبة خارج الخان تضع فيه قطعة من القماش وشيئاً من الطعام ، وحين سُئِلتْ عن سبب ذلك قالت : «إنني نذرت نذراً بأن أطعم الأسرى إذا استجاب الله لطلبي !» وكان الكثير غيرها يفعلون ذلك تصدقاً ونذراً للأسرى الذين أوصى بهم الإسلام خيراً وعاملهم معاملة حسنة .

وأمام المحنة التي تعرض لها الأسرى بعث الإمام شيخ الشريعة على الحاج عبد المحسن شلاش وأمره بعدم الامتثال للشائعات التي يبثها عوام الناس وجهالهم ، وإن للأسرى في الشريعة الإسلامية مكانة عالية ، والعناية بهم وإكرامهم فرض واجب .

فامتثل الحاج عبد المحسن شلاش لأمر شيخ الشريعة وكلف عبد الرزاق عَذْوَه بالإشراف على الأسرى وإدارة شؤونهم لمعرفته بعادات الانكليز وأخلاقهم حيث قضى مدة ليست بالقصيرة أسيراً لدى الإنكليز بتهمة اشتراكه في حركة النجف المسلحة ضد الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٨ وعلى أثرها نُفي مع عدد غفير من النجفيين إلى الهند . وبقي عبد الرزاق يقوم بعمله هذا حوالي شهر فسجّل أسماء الأسرى في جدول وكان يعمل لهم تعداداً صباح كل يوم ، ثم أنه التحق بالثوار وشغل رجل آخر محله .

وأتذكر نحن الصبية كنا ندخل إلى داخل خان الشيلان حيث كانت بابه الرئيسية مفتوحة ولم يخشى من هروب الأسرى لأنهم لا يعرفون أين يذهبون وهم في وسط بلدة معادية لهم وفي محيط يعج بالثورة ضدهم ، وعند دخولنا إلى الخان كنا نقابل الأسرى ونعطي لبعضهم آنة أو أربع پيزات فيقدموا لنا ألعاباً رياضية ، وكنا نعجب غاية العجب لتلك التمارين الرياضية التي كنّا نشاهدها أول مرة في حياتنا .

وبقي الاسرى في خان الشيلان قرابة اربعة اشهر .

ومن ذكرياتي عن تلك الفترة : ان أفراد العشائر التي قاتلت الانكليز كانوا يأتون الى النجف فيبيعون الأسلاب التي استولوا عليها من الضباط والجنود في ساحات المعارك وهي عبارة عن حقائب للألبسة ونواظير وملابس وكاميرات ، وكان الناس يشترونها عدا الملابس لانهم كانوا يعتبرونها نجسة ! .

واتذكر انه كان بين الاسلاب ، آلة صغيرة في صندوق لم يعرف احد شيئاً عنها فاشتراها المشرف على ساعة النجف المقامة في الصحن الشريف ، واخذ النجفيون يتحدثون عن تلك الآلة الخطيرة حيث ادعى الساعاتي انه ظهر منها شرارة عند فتحها ، ويظهر انها كانت من اجهزة المخابرة العادية .

ولما سيطر الانكليز على الموقف في الفرات واستولوا على معاقل الثوار وجه قائد الجيش الانكليزي في ١٩٢٠/١١/٢٠ انذاراً الى مدينة النجف بتسليم الاسرى الانكليز الموجودين فيها ، وعلى هذا ذهب وفد من النجف الى الكوفة وتم تسليمهم للسلطة الانكليزية دون قيد أو شرط .

واتذكر أيضاً في تلك الفترة ان طائرة انكليزية رمت على النجف مناشير باكياس فيها رمل ، وكان الناس يخافون من فتحها خوفاً من أن تنفجر وظهرت فيما بعد انها مناشير تدعو النجفيين الى الخضوع للقوة الانكليزية المحتلة .

ومن ذكرياتي عن الثورة ، ان الحامية الانكليزية في الكوفة قد حاصرها الثوار وحاولوا اقتحامها من البيوت المجاورة لها ، وثقبوا بعض جدرانها دون جدوى من أجل الوصول الى داخل الحامية ،

فعمد الانكليز لفك الحصار عن تلك الحامية بجلب باخرة مدرعة صغيرة تسير في الأنهر اسمها «فاير فلاي» فرست مقابل الدار التي تقتحم منها الحامية والتي تطل على نهر الفرات في الكوفة ، ولما علم الثوار بذلك جاؤوا بمدفع من الاسلحة التي غنموها من كتيبة ما نشستر في معركة الرارنجية انتزعت مُنه الابرة ، فجاء جماعة من الكوفة الى بغداد واتصلوا ببعض الذين لهم معرفة بصنع الأبر من الضباط الذين خدموا في الجيش التركي العثماني وساعدهم في ذلك الضابط (حسين علوان) فتمكنوا من إصلاح المدفع العاطل بحيث اصبح صالحاً للاستعمال فوجهه الثوار على الحامية وتمكنوا من اصابة أحد جدرانها بقذيفة ، ثم وجهوا المدفع صوب الباخرة (فاير فلاي) وتمكنوا من اصابتها واغراقها وفيها عدد من قواد الانكليز وجنودهم ومنهم الكابتن (مين) ، وبقيت الباخرة متروكة في قعر النهر ، وأخذ الناس ينتزعون بعض أجزائها ، واذكر ان قسماً من قاعدة الرشاش انتزعت ، وقد شاهدتها في باحة «الحاج عبد الله الصراف» في النجف حيث كان قد حصل عليها في حينها .

زيارة الملك احمد شاه الى النجف

وبينما كانت النجف تعيش ارهاصات الثورة ، اذكر انه قدم لزيارتها احمد شاه بن محمد علي بن عباس ميرزا بن فتح علي شاه ، آخر ملوك العائلة القاجارية الحاكمة في ايران ، وكانت زيارته في مايس ١٩٢٠[1] ، وهو على ما اذكر شاب لم يتجاوز الثلاثين من عمره بدين مكتنز الشحم واللحم وقد اعد له الانكليز استقبالاً فخماً حيث زينوا السوق الكبير من مدخل المدينة حتى باب الصحن بالثريات ، واقام في خان (عطية ابو كلل) وهو مركز الحاكم العسكري حفاظاً عليه وبعد زيارته مرقد الامام علي سافر الى كربلاء حيث اقيمت له هناك احتفالات كبيرة وأقيم له (قوس نصر) في مدخل المدينة ليمر من تحته موكبه ، وبعد زيارة العتبات المقدسة ومقبرة العائلة القاجارية في كربلاء غادر إلى أوربا ، ثم أقام في باريس حتى حدوث الانقلاب الذي قاده رضا شاه بهلوي في أواخر سنة ١٩٢٥ فخلع هذا الملك وانتهى بذلك حكم العائلة القاجارية ، ولم يبرح باريس حتى توفى بها سنة ١٩٣٦ ، فنقل جثمانه الى كربلاء ومر تحت قوس النصر الذي اقيم له في زيارته الاولى الى كربلاء سنة ١٩٢٠ ولم يبق من القوس سوى خشبة واحدة ، ودفن في مقبرة العائلة في كربلاء في احتفال بسيط جداً[2] .

---

(١) كتبت مجلة دار السلام اخبار زيارته في العدد ١٢ المجلد ٣ السنة ٣ في ١٥ حزيران ١٩٢٠ وجاء في ذلك :

«وصل شاه احمد بغداد ظهر يوم الجمعة ١٩٢٠/٥/٢١ في الساعة السادسة بعد الظهر فرحبت به الحكومة . وذهب لاستقباله كثير من رجال الدولة البريطانية ووجهاء الوطنيين ، وفي اليوم الثاني ٢٢ أيار زار الكاظميين ، ونهار الأحد ٢٣ ايار زار كربلاء ، وفي ٢٤ زار النجف ، وفي ليلة ٢٨ أيار غادر بغداد عائداً الى ايران مع حاشيته .

(٢) ورد في مجلة لغة العرب ج ٧ السنة ٨ (١٩٣٠) ص ٤٨٢ ما يلي :

«نقلت الباخرة شامبوليون الفرنسية جثمان المغفور له أحمد خان قاجار شاه ايران السابق الى ميناء بيروت ، وفي يوم ١٧ نيسان ١٩٣٠ أُنزل جثمانه من الباخرة في احتفال مهيب اذ حضرت مفرزة من الدرك اللبناني واصطفت امام مدخل دار المحجر الصحي ، ثم وضع في غرفة خاصة لنقله بالقطار الى دمشق ومنها الى بغداد . ولم يكن من أقاربه أو من الجالية الايرانية احد سوى الميرزا حسن خان خازن همايون» والميرزا اسماعيل خان طبيبه الخاص ، ويقال ان الشاه احمد اصر في وصيته التي وضعها في البنك الامريكي في باريس على أن ينقل جثمانه الى كربلاء وان لا تقام له حفلات وان لا يرافق جثمانه أحد من اقاربه حتى والدته الموجودة في باريس ولا اخوته غير الميرزا حسن الذي رباه . وعمل بموجب هذه الوصية .

وفي ٢١ نيسان (ابريل) ١٩٣٠ وصل الجثمان الى بغداد وكان في استقباله جمهور من الجالية الايرانية وممثلو بعض القنصليات وبعض رجال العاصمة ثم حمل نعشه الى كربلاء ودفن فيها حسب وصيته .

زيارة الامير فيصل الى النجف

عندما جاء الامير فيصل الى العراق كان قد نزل من الباخرة التي اقلته الى ميناء البصرة ثم ركب القطار حتى وصل مدينة الحلة ، ومن الحلة ركب السيارة الى النجف الاشرف فوصلها يوم ١٩٢١/٦/٢٧ م فاستقبله الاهالي بالترحاب الحار والتهليل وكان يرتدي اللباس العربي ـ العباءة والعقال المقصّب ـ ويتمنطق بخنجر ذهبي معقوف يعرف عندنا باسم «الاكديمي» ، واذكر انه عندما اتجه الى الصحن الشريف من بداية السوق الكبير اصطف الناس على جانبي السوق وقد حملوا بايديهم الشموع ، ويتقدمه شخص يحمل صينية وضع فيها القرآن الكريم مفتوحاً ومغطى بمنديل اخضر ، ويتقدم حامل القرآن الكريم شخص آخر ينادي باعلى صوته بالصلوات على محمد وآل محمد ، وكان يسير الى جانبه الشيخ محمد رضا الشبيبي وقد ارتدى هو الآخر العباءة والساعورية والعقال المقصّب وكان قد قدم معه من الحجاز ، وقبل دخوله الحضرة خلع «الاكديمي» وأودعه لدى الكليدار .

وبعد أن استضافه النجفيون وبالغوا في اكرامه غادر الى زيارة كربلاء المقدسة ومنها توجه الى بغداد .

زيارة رضا شاه الى النجف

زار رضا شاه النجف سنة ١٩٢٥ قبل أن يتوج وكان وزيراً للحربية ورئيساً لأركان الجيش «سباه سالار» وذلك بعد ان ضم عربستان الى ايران واسر الشيخ خزعل ونقله الى طهران مع عائلته وبقي محجوزاً في قصره حتى وافاه اجله .

وعند مجيء رضا شاه الى النجف قامت السلطة باستقباله كما خرج طلاب المدرسة الاميرية الحكومية مرحبين به ، ولكن طلاب مدرسة الغري الاهلية التي كانت تسودها الروح القومية العربية امتنعوا عن الخروج لاستقباله مما سبب احراجاً لرئيس هيئتها الادارية السيد حسين كمال الدين فدعا الطلاب لاستقباله فاشترطوا عليه ان يزود كل طالب بعلمين عراقيين صغيرين ولا يحمل معهما العلم الايراني كما جرى مع طلاب المدرسة الاميرية الحكومية ، فوافق على ذلك وهرع الطلاب للمشاركة في موكب الاستقبال والاعلام العراقية ترفرف بين ايديهم ، أما طلاب المدرسة الايرانية فضلاً عن مشاركتهم القوية في الاستقبال فانهم اقاموا له حفل تكريم في (المدرسة الايرانية) وقد ألقى احد التلاميذ كلمة ترحيبية نيابة عن الطلبة وهو «تقي الشيخ راضي» وهو من اسرة عربية معروفة في النجف وكانوا يسمونه في المدرسة الايرانية «تقي عرب» لانه الطالب العربي الوحيد فيها وحدثت حادثة كادت تعكر صفو هذا الاستقبال ذلك ان احد العطارين الايرانيين الموجودين في السوق الذي يمر منه موكب استقبال مدرسة الغري الاهلية ، كان يعلّق صورة كبيرة في دكانه عليها خارطة ايران والعراق وفيها صورة طاق كسرى وصورة رضا شاه ببدلته العسكرية وقد وضع احد قدميه في ايران والاخرى في العراق . فهجم طلاب مدرسة الغري الاهلية على دكان العطار المذكور ومزقوا تلك الصورة وكادت الحادثة ان تتوسع الى شجار كبير لولا تدخل الشرطة وانهاء النزاع .

ولما رجع رضا شاه الى ايران سمعنا بانباء قيامه بالانقلاب على أحمد شاه وتنصيبه نفسه ملكاً على ايران وكان من المخططين للانقلاب رئيس الوزراء (طباطبائي) وتحت علم الانكليز ومساعدتهم وعلى

اثر ذلك عدّلت اتفاقية «دارسي» حول نفط شركة عبادان بين بريطانيا وايران وتسلمت بريطانيا ثمنها لمساعدة رضا بالمجيء الى السلطة .

تأسيس أول مدرسة في النجف

لما أُسست الحكومة العراقية سنة ١٩٢١ قام نخبة من النجفيين بتأسيس مدرسة اهلية اسموها مدرسة (الغري) نسبة إلى الغري أو الغريان وهو من اسماء النجف القديمة ، ومن هذه النخبة الحاج عبد المحسن شلاش وعبد الرزاق الحاج مسعود ، والسيد ابراهيم ـ الذي اشترك في الحركات الوطنية ونفي الى هنجام ـ وعائلة آل كمال الدين الذين منهم السيد سعيد والسيد حسين والسيد محمد علي ، وهم من عائلة معروفة في النجف وأصلها من الحلة .

وبعد افتتاح المدرسة أقبل الناس على ادخال اولادهم فيها ، وقد التفت الملك فيصل الى هذه الناحية فأخذ يرعاها لانها كانت تبث الروح القومية والوطنية يومها في نفوس التلاميذ ، ثم بادرت وزارة المعارف بتقديم بعض المساعدات لها فاخذت المدرسة تستعين بالمدرسين العرب من مصر وسورية لعدم تيسر المعلمين العراقيين يومها . وكانت المدرسة تحتوي على ستة صفوف متخذة من مناهج وزارة المعارف دليلاً لها ، وكان السيد حسين كمال الدين أول مدير فخري لها ، والمدير الفعلي هو محمد علي ناصر من مصر ثم اعقبه على الادارة سامي نصير القبطي (من مصر أيضاً) وكنت من الملتحقين بالمدرسة واذكر من المدرسين العراقيين : معطي الحجازي وكان يعلمنا الكشافة والرياضة ، ويحيى قاف ، ومحمد فتيان ، وكان عمري يوم التحقت بالمدرسة ١٣ سنة ، ولما كان الاقبال على المدرسة شديداً افتتحت فيها صفوف ليلية لتدريس المتقدمين في السن والاميين أيضاً .

وكان من عادة النجفيين يومها ادخال اولادهم الى اعمال حرفية حرة لمنعهم من التسكع والضياع ، وقد اختار لي خالي الشيخ سعيد الطريحي ان اكون بزازاً وأخذت اداوم في القسم المسائي في الصف الرابع الابتدائي ، وعندما انهيت الدراسة الابتدائية التحقت بالصفوف المتقدمة ، وكانت تعادل اليوم الصفوف المتوسطة وقد اجتزت بنجاح الصف الثاني (المتوسط) وهو آخر صفوف المدرسة .

وقد فتحت الى جانب هذه المدرسة مدرسة حكومية هي المدرسة الاميرية وكان الناس يفضلون الدراسة في مدرسة الغري .

وعندما انهيت الصف الثاني المتوسط عينت معلماً في مدرسة الغري نفسها وعندها تركت مهنة البزازة ، وبقيت في التعليم سنة واحدة ، حيث كان الامل يحدوني لمتابعة دراستي ، ففكرت بالسفر الى بغداد للدخول الى مدرسة الزراعة وكان الدخول فيها وفي كلية الحقوق والعسكرية وغيرها يكون على اساس امتحان الطلاب المتقدمين في الانتساب اليها ، وعلى هذا سافرت الى بغداد سنة ١٩٢٥ وقابلت مدير مدرسة الزراعة وكان اسمه . . . الخياط ، (شقيق حنا خياط) فقال لي : انت اول طالب تراجعنا وآخر واحد أيضاً . لأن الاقبال على المدرسة كان معدوماً ولا يمكن ان نفتح المدرسة لطالب واحد ! .

ثم حاولت ان لا أعود خائباً الى النجف ، وكانت في بغداد مدارس اهلية مثل المدرسة الجعفرية ، والتفيض ، والحسينية عدا مدارس الطوائف اليهودية والمسيحية .

وكانت مدرسة الحسينية الاهلية بحاجة الى معلم في مادة الاشياء في الصفين الخامس والسادس الابتدائي وكانت تدرس العلوم الطبيعية ضمن هذه المادة ، فتقدمت مع المتقدمين لاداء الامتحان الذي

(صاحب المذكرات) عندما كان طالباً في مدرسة الغري في النجف الأشرف.

استحق فيه التعيين في هذه المدرسة ، وكانت طريقة الامتحان فيها الكثير من الديمقراطية حيث يلقي المتقدم محاضرة أو درساً في موضوع من مواضيع مادة الاشياء امام قسم من اعضاء الهيئة الادارية للمدرسة وطلاب المدرسة ، وكان من بين الاعضاء : صادق البصام ، وذيبان الغبان ، ومحمد حسن كبة ، وبعد إلقاء المحاضرة يأخذون رأي الطلاب في من هو أكثر وضوحاً في افهامهم ؟ وقد نلت رضا الطلاب والهيئة ونجحت فقبلت مدرساً براتب قدره (١٥٠) روپية .

وكان المدير يومها عبد المجيد الشيخلي «عم عبد الكريم الشيخلي وزير الخارجية العراقية الاسبق» ومن المعلمين الذين زاملتهم : سامي الاورفلي مدرس الرياضيات ، ومدرس الانكليزية مصري قبطي نسيت اسمه ، ومدرس اللغة العربية الشيخ محمد رضا ، أما الجغرافية والتاريخ فكان يدرسهما المدير نفسه .

وقد كنت اسكن في المدرسة نفسها ثم استأجرت غرفة في (خان البحراني لبيع التتن) وكانت الغرفة تقع في الطابق الثاني وقبالتي غرفة استأجرها الشيخ محمد مهدي البصير وكان آنذاك معلماً للعربية في دار المعلمين الابتدائية وكان يقوده الى المدرسة ويقرأ له المراجع شخص اسمه (أحمد) وكان البصير يستعين بي أيضاً لقراءة بعض المراجع والمجلات ، وكانت غرفته هذه اشبه بالندوة الثقافية حيث يجتمع فيها معه عدد من المهتمين بالادب والثقافة ، واذكر منهم المرحوم سعد صالح جريو والسيد باقر الحلي وعبد الرزاق عدوة وكانوا يومذاك يدرسون في مدرسة الحقوق ثم ترك الشيخ البصير غرفته واستأجر اخرى في محلة باب الآغا وقد زرته ذات يوم فسمعت الألحان الموسيقية الشجية ولما سألت الشيخ محمد مهدي اشار الى شباك يأتي منه الصوت في دار جاره وكان يهودياً من أهل حلب يمتهن تعليم الموسيقى في بيته .

مؤتمر كربلاء لصد غارات الاخوان

تعرضت بعض المدن العراقية الى هجمات الوهابيين في فترات متفاوتة من تأريخ العراق الحديث ، ففي سنة (١٢١٨ هـ ـ ١٨٠٣م) هجم الوهابيون على مدينة النجف لكنهم لم يتمكنوا من اجتياحها لاستماتة أبناءها في الدفاع عن مدينتهم وتسلح الأهالي ، وفي سنة ١٢٢٠ هـ سار سعود الثاني من نجد الى النجف لغزوها ولكنه لم يفلح في دخولها وردّ على أعقابه خائباً .

كذلك غزا الوهابيون مدينة كربلاء فنهبوها وقتلوا عدداً كبيراً من أبناءها ومن الزوار الذين كانوا يقصدونها باستمرار من داخل العراق وخارجه .

واستمرت تلك الغزوات للعراق حتى بعد تشكيل الحكم الوطني فيه فغزوا لواء المنتفك وقتلوا ونهبوا وخرّبوا ، وكان غرضهم الاستيلاء على البادية الغربية بقيادة فيصل الدويش حيث لم تكن الحدود يومها قد حدّدت بعد بين العراق والسعودية ، وقتلوا ونهبوا قبيلة زوبع كما قتلوا كثيراً من الهجانة التي شُكلّت بقيادة يوسف بك السعدون لصدّهم ، وكانت هذه الأعمال تجري بتحريض عبد العزيز السعود بعد أن استولى على (حايل) من ابن رشيد وأعلن نفسه سلطاناً لنجد .

وحيث لم يكن لدى العراق جيش يستطيع صدّ هذه الغزوات اضطر الملك فيصل الأول باللجوء الى علماء الدين ورؤساء العشائر لتثبيت مركزه في البلاد أمام السلطات الانكليزية ، فانبرى الامام

الخالصي الذي كان يسكن (الكاظمية) يومها مع بقية العلماء وأرسل أكثر من مائتين وخمسين برقية الى رؤساء العشائر والمتنفّذين في مختلف أنحاء العراق يدعوهم فيها الى عقد مؤتمر في كربلاء للنظر في غزوات الوهابيين ، فاستجاب لدعوته أكثر الشيوخ والوجهاء من الموصل ، وتكريت ، وسامراء والدجيل ، وغيرهم .

ومن نصوص هذه البرقيات البرقية التالية :

«بمناسبة تجاوز الاخوان على حدود العراق تقرر أن يحضر العلماء وجميع رؤوساء القبائل في اليوم العاشر من شهر شعبان المعظم فيلزم حضوركم في اليوم المذكور الى كربلاء» (١) .

وعقد المؤتمر في كربلاء للفترة (١٠ ـ ١٥ شعبان) أثناء زيارة المحيا ، وأراد الملك فيصل أن يحضر المؤتمر بنفسه ، ولكن برسي كوكس حال دون حضوره لكي لا ينقلب المؤتمر الى مظاهرة تأييد للملك فيصل وسخط على السياسة البريطانية في الوقت نفسه ، مما اضطر الملك أن يرسل وزير الداخلية توفيق الخالدي نيابة عنه ، غير أن الملك اوجس خيفة من الخالدي وتزعزعت ثقته به فأرسل (نوري السعيد) بعده متنكراً بلباس عربي ونزل ضيفاً في بساتين بيت الرشدي وأخذ يتصل بشخصيات المؤتمر مثل : عثمان العلوان وأخيه عمر العلوان وقاسم الرشدي وگاطع العوادي وغيرهم ، وكان يعاونه في ذلك مدير شرطة كربلاء هاشم العلوي (١) .

بلغ عدد زوار كربلاء يومها حوالي مائتي ألف زائر ، وقد أرسلت حكومة العراق الى كربلاء قوة من الجند للمحافظة على الأمن مكونة من ٢٠٠ جندي من المشاة و ٣٠٠ من الخيالة بقيادة محي الدين السهروردي .

---

(١) كانت الاستجابة لهذه الدعوة ملفتة لنظر الانكليز على قدرة العلماء وقوتهم على جمع كلمة الشعب وتصف جريدة دجلة في عددها الصادر يوم ١٣ نيسان ١٩٩٢ موكب أعيان بغداد الى مؤتمر كربلاء فتقول :

في الساعة الثامنة من صباح يوم ١٠ نيسان خرج موكب من جامع الفضل في بغداد يتقدمهم عبد الوهاب النائب وابراهيم الراوي وأحمد الشيخ داود وعبد الجليل الجميل ، ومعهم عدد من الشباب المثقف ، وخرج الجمهور لتوديعهم بأعلامهم وطبولهم وساروا حتى وصلوا الجسر فعبروه متوجهين الى مقربة من محطة القطار في الكرخ ومن هناك ركبوا السيارات الى كربلاء حيث وصلوها في الساعة الرابعة بعد الظهر فتوجهوا الى دار قاسم الرشدي فنزلوا عليه ضيوفاً .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه وصل الى كربلاء وفد من الموصل مؤلف من مولود مخلص وسعيد الحاج ثابت وأيوب عبد الواحد وعبد الله النعمة وثابت عبد النور وعجيل الياور ومحمد آغا الكركوية ونزلوا في دار عمر العلوان .

ووصلت برقية الى الخالصي من أهل تكريت وشرقاط يذكرون فيها انهم انتدبوا مولود مخلص ليمثلهم في المؤتمر وأنهم مستعدون لتنفيذ أيّ قرار يصدر منه بأموالهم وأنفسهم .

وتؤكد جريدة (الرافدان) في عددها الصادر في ١١ نيسان ١٩٢٢ ان مضبطة بهذا المعنى قد وصلت الى الامام الخالصي وهي تحمل التواقيع التالية :

النقيب السيد أحمد رئيس عشيرة تكريت ، محمد عرب رئيس عشيرة تكريت ، ومصطفى الحاج حسن رئيس عشيرة البيگات ، أحمد الخطاب رئيس عشيرة البيگات ، ندا الحسين رئيس عشيرة البيگات ، زيدان الخلف رئيس عشيرة الحديثين ، سلمان الحاج حميد .

(١) انتحر هاشم العلوي سنة ١٩٣٩ في الرطبة وكان مع عائلته في الطريق الى سوريا للاصطياف .

تلغرست

بسم الله الرحمن الرحيم

المرقعون ادناه سادات وزعماء ورؤساء قبائل العراق اصالة عن انفسنا وممثلو الافراد قبائلنا لدعوة جلالة الاسلام ذات بركاتهم الذين يجب علينا طاعتهم وهي فرض وانتنا لازمة في اعناقنا في كل وقت وحين قد حضرنا في كربلاء المشرفة في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان سنة ١٣٤٠ وبارشاد سروساء الدين العلماء بناء على ما اوقعه الخوارج الاشقياء اخواننا السابقين من الاهوال الوحشية من القتل والسلب والنهب فقد تعاهدنا وتعاقدنا واتفقت كلمتنا بحيث لا يخالف بعضنا بعضا فيما تقتضيه مصلحة بلادنا وحفظ مشاهدنا المقدسة وقبور الاولياء فتقرر انا مدافعة الخوارج الاشقياء ومقاتلتهم بمعاضدة جيش مليكنا النظامي بكل ما في وسعنا واستطاعتنا واتخاذ المتاريس اللازمة بناء على اعلاننا بعرش جلالة مليكنا المعظم فيصل الاول دامت شوكته فامر كتيبة الخوارج الاشقياء ومقاتلتهم وعدد المدافعين من القبائل وسلاحهم واعاشتهم وسكانهم وزيارتهم وتنظيمهم فهو عائد لارادة صاحب الجلالة مليكنا وتدبيره المصائب عنا نطلب استرداد الاموال المنهوبة وتأدية ديات قتلانا التي سفكت دمائها ظلما وعدوانا وقد نظمنا بذلك نسختين قدمنا واحدة لعرضها لاعتاب صاحب الجلالة والثانية تبقى تحت اشراف العلماء الاعلام والله المستعان

الوفد الموصلي

وفي صباح يوم ١٠ شعبان افتُتح المؤتمر وتقرر فيه تنظيم مضابط يوقعها الرؤوساء والوجهاء تحتوي على أهداف الشعب الأساسية المتعلقة بقضية (الاخوان) ، وفي الاجتماعات التي تلت ذلك الاجتماع في بقية أيام المؤتمر جرى تنظيم المضابط والتوقيع عليها .

وكان جعفر أبو التمن من العناصر النشيطة في هذا المؤتمر حيث اغتنمها فرصة للدفاع عن حرية الأحزاب في ممارسة عملها السياسي وقد خالفه بعض الشيوخ بتحريض من برسي كوكس مثل علي السليمان وعداي الجريان .

لم يكن مؤتمر كربلاء غير تظاهرة حققت بعض الفوائد للعراقيين ، ومن ذلك انه جعل (كوكس) يبذل جهوده لتسوية النزاع بين العراق وابن سعود بشكل ينسجم مع مصلحة العراق . ففي أيار ١٩٢٢ أي بعد مرور شهر على مؤتمر كربلاء عُقد مؤتمر في المحمرة بتدبير المستر برسي كوكس حضره وزير المواصلات والأشغال صبيح نشأت مندوباً عن العراق ، وأحمد بن ثنيان مندوباً عن ابن سعود كما حضره الميجر بورد بلون سكرتير برسي كوكس مندوباً عن الأخير ، وفي ٥ أيار تم التوقيع على معاهدة لتحديد الحدود بين العراق والسعودية وقد عُرفت بمعاهدة (المحمرة) .

صورة لاحد الوثائق الصادرة عن مؤتمر كربلاء :

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن الموقعون أدناه سادات وزعماء ورؤساء قبائل العراق ، أصالة عن أنفسنا وتمثيلاً عن أفراد قبائلنا تلبية لدعوة حجج الاسلام دامت بركاتهم الذين يجب علينا طاعتهم وهي فرض ديانتنا اللازمة في أعناقنا في كل وقت وحين ، قد حضرنا في كربلاء المشرفة في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان سنة ١٣٤٠ وبارشاد رؤوساء الدين العلماء بناء على ما أوقعه الخوارج الاخوان باخواننا المسلمين من الأحوال الوحشية من القتل والسلب والنهب ، فقد تعاهدنا وتعاقدنا واتفقت كلمتنا بحيث لا يخالف بعضنا بعضاً فيما تقتضيه مصلحة بلادنا وحفظ مشاهدنا المقدسة وقبور الأولياء فقررنا مدافعة الخوارج الاخوان ومقاتلتهم بمعاضدة مليكنا النظامي بكل ما وسعنا واستطاعتنا واتخاذ التدابير اللازمة بناء على تعلقنا بعرش جلالة مليكنا المعظم فيصل الاول دامت شوكته فأمر كيفية دفاع الخوارج الاخوان ومقاتلتهم وعدد المدافعين من القبائل وسلاحهم واعاشتهم ومكانهم وزمانهم وتنظيمهم فهو عائد لارادة صاحب الجلالة مليكنا وتدبيره الصائب غير انا نطلب استرداد الأموال المنهوبة وتأدية ديّات قتلانا التي سُفكت دماؤها ظلماً وعدواناً .

وقد نظمنا بذلك نسختين قدمنا واحدة لعرضها لأعتاب صاحب الجلالة والثانية تبقى تحت إشراف العلماء الاعلام والله المستعان .

أعالي دجلة

توكيل مولود مخلص ، بموجب البرقية المرقمة ١٦/٥٥ و١٤/٣ خطاباً الى حجة الاسلام الشيخ مهدي الخالصي الممضاة من حضرة نقيب تكريت حمدي أفندي ورئيس عشيرة الحديثيين مقيم ورئيس عشيرة البيگات أحمد ورئيس عشيرة تكريت محمد عرب ورئيس عشيرة البيگات ندا الحسين ورئيس عشيرة البو ناصر توفيق ورئيس عشيرة تكريت مصطفى ورئيس عشيرة الحديثيين ورئيس عشيرة تكريت زيدان المصرحة بتوكلي قد حضرت الاجتماع مع الوفد الموصلي .

الوفد الموصلي

المؤلف من رئيس المدرسة الاسلامية عبد الله افندي النعمة ومولود مخلص وسعيد ثابت والحاج أيوب عبد الواحد وعبد الله أفندي آل رئيس العلماء وثابت أفندي عبد النور وعجيل اليارو وذلك بحسب البرقية الواردة من الموصل المعربة ، ذلك . . ؟

الانتساب الى الكلية العسكرية

بقيت في المدرسة الحسينية الأهلية حوالي سنة واحدة وفي نهاية العطلة الصيفية قررت الرجوع الى النجف بأمل أن أرجع معلماً في مدرسة الغري وأكون قريباً من أهلي فجئت الى مركز انطلاق السيارات الذاهبة الى النجف وكانت تقع في جانب الكرخ قرب مقهى البيروتي المشرفة على نهر دجلة عند رأس الجسر القديم . وجلست في المقهى للانتظار حتى يكمل عدد الركاب الذين سوف تقلهم السيارة الى النجف ، وقد جلس بقربي في زاوية المقهى ثلاثة شبان يتدارسون الرياضيات ، وقد أشكلت عليهم مسألة رياضية فتدخلت بينهم وقمت بحل تلك المسألة حيث كنت متقدماً في الرياضيات لأنني كنت آخذ دروساً خصوصية مجانية على أحد الشيوخ الذين كانوا يدرسونها على الطريقة القديمة في النجف ، فأعجب الشبان بحل هذه المسألة فبادرتهم بالسؤال عن غرضهم من هذه المذاكرة في موضوع الرياضيات ، فقالوا لغرض الدخول الى الكلية العسكرية وبدأت معهم في مبادلة الأحاديث وتعرفنا على بعضنا البعض وكان الشبان هم : ناجي شاكر ـ الذي صار فيما بعد مديراً للاعاشة ووصل الى رتبة زعيم ، ومحمد ياسين ـ الذي دخل مدرسة الطيران بعد ان انتقل من المدرسة العسكرية وتوفي في حادث سقوط طائرة ـ وسعيد طه ، وناظم رشيد الذي صار فيما بعد مديراً عاماً للشرطة في أيام حكم عبد الكريم قاسم وجميعهم من محلة الجعيفر في جانب الكرخ .

وصادف ونحن جلوس في المقهى ان عبر الجسر الذي أمامنا ضابط خيالة ، فقال الأصدقاء ان المتخرج من المدرسة العسكرية يكون مثل هذا ، وأشاروا الى هذا الضابط ، وكان منظره جميلاً ومؤثراً إذْ كان يحتذي الحذاء الطويل الذي يصل الى الركبة (الجزمة) ونطاق بشكل الوشاح الذي ينفرد به ضباط الخيالة ، وعرفت فيما بعد هذا الضابط وهو توفيق المختار (والد قيس المختار) والمهم فان حب الدراسة العسكرية قد انطبع في قلبي من ذلك اللقاء ، ثم استدللت بواسطة الأصدقاء على كيفية الانتساب الى الكلية العسكرية ، وفي اليوم التالي راجعت مديرية الادارة في وزارة الدفاع التي تقع في منطقة الميدان وراجعت المدير (شاكر النائب) فقال لي : ان التسجيل في المدرسة العسكرية قد انتهى منذ خمسة عشر يوماً وسيكون الامتحان فيها غداً صباحاً ، وبينما كنت أحادثه اذ دخل شخص على رأسه سدارة سوداء ، وقد عرفته فيما بعد بانه «سيد عبد الله» وهو رئيس الكتاب في تلك الدائرة وصار أحد أولاده برتبة زعيم ومديراً للإدارة فيما بعد .

وقد تدخّل في الحديث بيننا ، فسألني من أين أنت ولماذا تأخرت في التسجيل ، فأجبته بأنني من النجف ومن العائلة الطريحية ولما سمع بذلك طلب من مدير الإدارة شاكر النائب ورجاه بقبول تسجيلي ولو كان متأخراً ، فسأله النائب : عن سبب رجائه هذا فأجابه : لردّ دين عليّ حيث كنت في الجيش العثماني وقد هربت منه كما هرب غيري فآواني وتستر عليّ سعيد الطريحي وهو من محلتنا في القراغول في

بغداد وصاحب مطبعة دار السلام مقابل المدرسة المركزية (محلة البقچة) ، فقبل رجاءه وسجلني ، وقال لي : غداً تذهب لأداء الامتحان في النادي العسكري .

وفي الصباح ذهبت الى النادي العسكري وكان يقع على نهر دجلة قرب البرلمان ، ودخلت القاعة مع حوالي ٨٠ ممتحناً ، فجاء ضابط برتبة مقدم من صنف المدفعية وكتب لنا على السبورة الأسئلة وطلب منّا الاجابة عليها وكانت خمسة أسئلة في علم الهندسة والحساب والجبر ، ولما فرغ من كتابتها سألنا جميعاً : هل عرفتم الأسئلة ؟ فلم يرفع أحد يده غيري ، فقال لي : هل عرفتها جميعها ، فقلت له : نعم ، فقال اذا كان الأمر كذلك فقم ووضحها لهم فقمت ووضحتها لهم ، وقلت لهم أثناء التوضيح فيما يتعلق بالسؤال الأخير اعكسوا نظرية فيثاغورس فصاح بي المقدم وقال : لم أطلب منك حلها لهم ، ثم أمرنا جميعاً بحل تلك الأسئلة تحريرياً وكانت بالنسبة لي في غاية السهولة ، وأثناء كتابتي الأجوبة جاءني المراقب الأول وكان رئيس المرافقين للملك فيصل الأول وهو العقيد خالد الزهاوي وكان يحمل على صدره الأوسمة والنياشين وقال لي اعطِ أوراقك الى هذا وأشار الى شخص يجلس بجانبي وهو أحد الممتحنين ، وعندما انتهيت من الإجابة على الأسئلة كتبت الأجوبة وأعطيتها له وعرفته فيما بعد اسمه وهو (نائل محمود) أحد أبناء الضباط الخيالة الذي سقط والده من حصانه وتوفي ، وكان الغرض من ذلك مساعدة ولده لإدخاله الى المدرسة تكريماً لوالده حيث لم يكن لديه غير الشهادة الابتدائية .

وفي اليوم الثاني امتحنا في مادة الجغرافية والتأريخ وكانت الأسئلة بسيطة ، وفي اليوم الثالث كان امتحان اللغة الانكليزية وكنت ضعيفاً فيها ولكن تمكنت من تدبير أمري . وهكذا كان مجمل امتحان الدخول ، وقد أخرت ذهابي الى النجف بانتظار النتيجة وبعد أسبوعين ذهبت الى النادي لمعرفة نتيجة الامتحان ، وأخذت أنظر الى قائمة الأسماء من الأسفل صعوداً الى الأعلى لأنني لم أكن أصدق أنني سوف أنجح ، واتجه نظري الى الأعلى واذا باسمي يكون الثاني في الترتيب ، والشخص الذي ساعدته الأول في القائمة ، وكان مجموع الذين نجحوا في الامتحان حوالي ٣٣ طالباً من مجموع ثمانين .

وطلب من الناجحين مراجعة المدرسة العسكرية في اليوم التالي وكانت المدرسة تقع في الثكنة الشمالية ، ولا تزال موجودة حتى اليوم واتخذت مدرسة للموسيقى العسكرية وفي مقابلها وزارة الأوقاف .

وذهبت في اليوم المحدد مع بقية المقبولين ، وكان ذلك سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ الدراسية ووزعت علينا الملابس العسكرية وأسرّة النوم والدواليب وغيرها من التجهيزات الخاصة بنا . وكانت هذه الدورة هي الدورة الثالثة للمدرسة العسكرية وكان يومها المقدم توفيق وهبي آمراً لها والرئيس الاول (الرائد) سلمان فتاح باشا ـ الذي صار فيما بعد نائباً في المجلس العراقي ـ معاوناً له .

وكان يُدرس فيها نخبة طيبة من ضباط الجيش العراقي منهم :

طه الهاشمي : استاذ مادة سوق الجيش (الستراتيجيا) .

نظيف الشاوي : استاذ مادة الجغرافيا .

منير القاضي : استاذ اللغة العربية .

ابراهيم الدباس[1] : مدرس اللغة الانكليزية .
توفيق وهبي : مدرس اللغة الفارسية .
المحامي مدحت : يدرس مادة التاريخ .
احمد تيسي : يدرس الرياضيات .

وممن كان معنا في الدورة محمد ياسين ، وناظم رشيد (الذي صار مديراً للشرطة العام في عهد عبد الكريم قاسم) ، وعباس علي غالب ، وحسن علي غالب ، وأفرام هندو ، وبهنام خوري ، وأسعد جابر ، ونائل محمود ، وسليم حناوي ، وناجي شاكر وناظم رفيق ، ومزهر اسماعيل الشاوي ، وبشير يعقوب ، ومحمود بهجت ، وسيد صالح امين ، ومجيد اسماعيل الباچچي ، ورحمة الله الطالباني وكنت متفوقاً في الدروس في المدرسة العسكرية ، ومما أذكره في احدى الامتحانات الشهرية في مادة الطوبوغرافيا التي كان يدرسها بكر صدقي جاءنا سؤال واحد رُسمت عليه ثلاثة تلال أ ، ب ، جـ ، والسؤال : هل تتبادل الرؤيا بين أ ، جـ ، فكان التلاميذ يرسمون خطاً مستقيماً من أ ـ جـ للتأكد من الرؤيا ، وكان الخط يقع في ب فأجاب التلاميذ جميعهم بأن لا تتبادل الرؤيا لكنني لفت نظري مقياس السفل المخطط ١/١٠٠ فقست به ذلك المتقاطع في نقطة ب فوجدته لا يزيد على متر ونصف فقلت له : نعم تتبادل الرؤيا حيث انه اذا وقف الجندي في موقع أ باستطاعته تبادل الرؤيا والمخابرة مع جـ ، فأحرزت في ذلك درجة ١٠٠ واخذ جميع طلاّب الصف صفراً .

وكان بكر صدقي لا يُحسن اللغة العربية وكان يصعب عليه افهام التلاميذ بها وكان يأتي الى الصف ويفهمني المادة على حدة ، وأنا بدوري أقوم بمعاونته في تبسيط المادة الى زملائي التلاميذ وأتذكر أن الملازم حسين مكي خماس كان يحضر معنا محاضرات الطوبوغرافية ليهيء نفسه ليكون معلماً .

وكان نظيف الشاوي يلقي علينا محاضرة في الجغرافيا عن المجموعة الشمسية والخسوف والكسوف ، والفصول الاربعة وكيف نشأت كروية الارض وقد علقت على هذه المحاضرة وقلت له : ان آخر تجربة للعالم الفلكي البولوني (لايلاس) هي ان جاء بطاسة مملوءة بالماء ووضع فيها قطرة من الزيت وادارها بسرعة فانفصل عن تلك القطرة عدة قطرات صغيرة تدور حول نفسها في نفس الوقت كما تدور قطرة الزيت بنفس الاتجاه لدوران الطاسة ، واستطاع هذا ان يضرب مثلاً بذلك لدوران المجموعة الشمسية باقمارها وتوابعها ، فسألني نظيف الشاوي بدهشة : من اين لك هذه المعلومات ؟ فقلت له : اني قرأتها في كتاب «القدرة والطبيعة» اذ كنت اقرأ جميع ما يرد الى النجف من مصر من المطبوعات في مواضيع مختلفة كمطالعة خاصة عندما كنت مدرساً ومن الكتب التي قرأتها في تلك الأيام مجموعة نظرية النشوء والارتقاء للدكتور شبلي شميّل .

---

(١) لبناني الاصل : تخرج في الكلية الامريكية في بيروت ، عين استاذ اللغة الانكليزية في كلية الآباء اليسوعيين ولما استعاد الجيش العربي دمشق قام بتعليم الضباط في المدرسة الحربية ، واخذ يدرس الملك فيصل الاول اللغة الانكليزية والفرنسية ، ولما قام العرش الهاشمي في العراق عُهد اليه المهمة نفسها على ان يدرس الامير غازي ولي العهد يومذاك فانقطع الى تدريسه نحو سبع سنوات ثم قام بتدريس الامير عبد الاله ، ثم عُين في المعارف فعلّم عدة سنوات استقال بعدها وانصرف الى مزرعته التي امتلكها في ضواحي بغداد (مشاهير الرجال ٤/ ١٧٠ ـ ١٧١) .

ومن ذكرياتي عن العقيد توفيق وهبي ، انه كان يدرسنا اللغة الفارسية وهو في نفس الوقت ضليع في اللغة الكردية وواضع أسس القواعد الخاصة بها ، وكانت المدرسة تعطي أهمية خاصة لدرس اللغة الفارسية ، والتلاميذ يهتمون بها لأنه درس يدرِّسه آمر المدرسة ويرغبون في أن يبرزوا به ، وقد أُدخلت الفارسية في منهج الدراسة على غرار ما كان يجري في المدرسة العسكرية في اسطنبول وذلك كون الفارسية لغة بلد مجاور ولا بد أن يقع بين المتجاورين خصام أو وفاق فعلى الضباط الالمام بتلك اللغة ، بالاضافة الى انها تنفع في فهم اللغة الكردية التي يتكلم بها الاكراد القاطنين في شمال العراق .

وفي أحد الامتحانات الشهرية امتحننا توفيق وهبي ببيت شعر فارسي وطلب ترجمته الى اللغة العربية وعلى ما أتذكر كان البيت :

كبوتر با كبوتر باز باباركند هم جنس باهم جنس پرواز

وقد ترجمها الزملاء ترجمة حرفية بمعنى «ان الطير يلعب مع نظيره من الطيور ، والطيور تطير مع بعضها» لكنني بادرته مذكّراً بشطر بيت الشعر العربي المشهور «ان الطيور على امثالها تقع» فاستحسن توفيق وهبي ذلك جداً .

البعثة العسكرية الى انكلترا (١٩٢٧ ـ ١٩٢٨)

وعندما جرى الامتحان النهائي للسنة الاولى كنت الاول في الصف الذي كان عدد ثلاثة وثلاثين طالباً .

وقد قررت وزارة الدفاع أن ترسل عدداً من طلاب المدرسة العسكرية للتخصص في الطيران بالاضافة الى الوجبة الأولى التي أُرسلت قبل سنة من ذلك التاريخ وكانت تلك الوجبة مكونة من : محمد علي جواد ، وموسى علي ، وأكرم مشتاق ، وحفظي عزيز ، وناطق الطائي ، وناجي ابراهيم (من الطائفة اليهودية) ، وناصر الجنابي .

فرشحت الى هذه البعثة مع عدد آخر من طلاب المدرسة العسكرية فأُرسلنا الى مقر القوة الجوية الانكليزية في الهنيدي (معسكر الرشيد الآن) وأُجري علينا الفحص الجسماني لمعرفة صلاحيتنا للطيران العسكري وكان فحصاً صعباً وعسيراً جداً فلم ينجح من الطلاب غيري ، وكان في نية وزارة الدفاع ارسال عدد كبير من الطلاب فلما نجحت وحدي صرفت النظر عن هذه البعثة اذ ليس من المعقول ان ترسل طالباً واحداً ، وكان من حسن الحظ ان هنالك بعثة اخرى لضابط واحد لصنف المدفعية يكمل دراسته في اكاديمية الفنون العسكرية في وولج بلندن ، وسألوني اذا كنت ارغب ان استعيض بها عن بعثة الطيران فوافقت ، ورشح معي في هذه البعثة مزهر اسماعيل الشاوي الى كلية ساند هرست ـ صنف المشاة ، وكان من صنف مدرسة اولاد العشائر ولكنه حول الى الصنف المدني بواسطة وزير الدفاع نظيف الشاوي . وعلى هذا انقطعنا عن الدراسة في المدرسة العسكرية وفتحت لنا دورة خاصة لمدة شهرين لدراسة وتعلم اللغة الانكليزية .

وقبيل موعد السفر الى انكلترا طلبت وزارة الدفاع مني ان اقدم كفيل بمبلغ ألف روپيه (وهي العملة المتداولة في العراق آنذاك) و ٤٠٠ روپيه اخرى نقداً لشراء ملابس وتجهيزات تناسب السفر والروپيه يومها كانت تعادل ٧٥ فلساً وكان هذا المبلغ كبير جداً ولو كنت املك مثله يومها لافتتحت لي

متجراً من أكبر المتاجر الموجودة في النجف ، وفكرت في صرف النظر عن هذه البعثة لانني لا أستطيع تدبير هذا المبلغ ، ولكن هيئة المدرسة كانت مصرّة على ارسالي الى البعثة وطلب مني الآمر توفيق وهبي ان اذهب الى النجف لعلي استطيع تدبير المبلغ من اهلي وعشيرتي وقال لي : خذ اجازة ثلاثة ايام واذهب الى النجف ، فوافقت على ذلك وتوجهت الى كراج السيارات للذهاب الى النجف وبينما كنت في طريقي في الباب الشرقي رأيت صديقي المرحوم يوسف رجيب (الكاتب الوطني المعروف) وكان زميلي في التدريس في مدرسة الغري ، فطارحته همي فقال لي : اذهب الى سعيد الطريحي صاحب مطبعة دار السلام وكانت هذه المطبعة من أكبر مطابع بغداد في ذلك الوقت وكان شريكاً بها مع ابراهيم باشا والد المرحوم يوسف عز الدين ـ وزير المعارف الاسبق ـ وتقع هذه المطبعة مقابل الثانوية المركزية (محلة البقجه سابقاً) ، فذهبت الى المطبعة ووجدت سعيد الطريحي هناك وأخبرته بموضوع البعثة وصعوبة تدبير الكفالة فقال لي : ان الامر سهل جداً بالنسبة لي لانني اطبع جميع مطبوعات وزارة الدفاع في مطبعتي واطلبهم مبالغ كبيرة وهم بلا شك سوف يقبلون كفالتي ، بالفعل قبلوا الكفالة ، اما المبلغ النقدي وهي (٤٠٠ روپيه) فقد استدان لي صديقي يوسف رجيب من المرحوم محسن شلاش ـ وزير المالية الاسبق ـ مبلغ مائة روپيه كمبيالة واستدنت مائة روپيه اخرى كمبيالة أيضاً من نائب الديوانية سعيد . . . والمبلغ المتبقي قدم لي من هيئة التدريس في المدرسة العسكرية .

أما زميلي في البعثة مزهر الشاوي فقد تكفّله نظيف الشاوي وساعده أيضاً قريبه (مراد الشاوي) الذي صار متصرفاً فيما بعد .

وبعد ان هيئنا مبلغ الكفالة النقدي تقرر ارسالنا الى انكلترا .

التهيؤ للسفر

وقبل السفر اخذنا مدرس اللغة الانكليزية الى مفتش الجيش العام الميجر جنرال (لوك) لمقابلته . وتمت المقابلة بشكل رسمي وأوصانا بالاجتهاد والسعي والمثابرة ، ثم كلفت ادارة المدرسة آمر الفصيل زكي عبد الوهاب بشراء الملابس والتجهيزات المطلوبة بمبلغ مائتي روپيه من المبلغ النقدي الذي أخذ منّا ومع هذا فان جميع تلك الملابس والتجهيزات لم نستفد منها في انكلترا .

وقد حُجِزَ لنا مقعدان في سيارات شركة (نيرن) وهي الشركة الوحيدة التي كانت تقطع الصحراء الغربية ذلك الطريق الذي اكتشفه گلوب باشا (أبو حنيك) .

السفر الى انكلترا

وفي الموعد المحدد لسفرنا ذهبنا الى كراج شركة (نيرن) وكان في الصالحية بجانب الكرخ وقد جاء لتوديعنا عن هيئة تدريس المدرسة العسكرية الملازم الاول زكي عبد الوهاب ومراد الشاوي ، كما حضر الصديق يوسف رجيب ، وقد اعطانا زكي عبد الوهاب رزمة صغيرة وقال لنا : هذا متاع لكم في الطريق ، وكانت عبارة عن خبز وحلاوة راشي ، وقدم لنا برقية مكتوبة باللغة الانكليزية وقال لنا : عليكم ان تبرقوا الى الملحقية العراقية في لندن عند وصولكم الى باريس ، وسوف يساعدكم في ارسالها موظفو شركة كوك الذين يلبسون «البيشل» ويكتبون عليها «شركة كوك» وهذا جزء من مهمة الشركة لايصالنا الى لندن .

فسارت بنا السيارة متجهة الى سورية عن طريق الرطبة فوصلنا الرطبة عصراً ـ وكان بدء الرحلة صباحاً ـ ونزلنا في استراحة الشركة في الرطبة وقدموا لنا طعاماً لذيذاً جعلنا نستغني عن المتاع الذي حملناه معنا ، وبتنا تلك الليلة في الرطبة ، وفي الصباح واصلنا السير الى الشام في صحراء جرداء قاحلة ووصلنا دمشق عند غروب الشمس فانزلتنا الشركة في فندق دمشق وهو من أفخم الفنادق يومها وقضينا فيه ليلة واحدة ، وقد تجولت مع صاحبي مزهر الشاوي في دمشق واسواقها واذكر أننا دخلنا سوق الحميدية وانتهينا الى الجامع الأموي الكبير ، وهناك عند باب الجامع كان دكان يبيع المهلبية ووجدنا المصلين والداخلين الى الجامع يأكلون منها فاكلنا منها ايضاً ، ثم رجعنا الى الفندق .

وفي صباح اليوم التالي هيأت لنا شركة كوك سيارة صغيرة من نوع فورد لتقلنا الى بيروت ، وقد ركب معنا انكليزيان مسافران الى بيروت أيضاً ووصلنا بيروت مساءاً بعد وقفة قصيرة في احد المقاهي على الطريق .

وقد حجزت لنا الشركة غرفة في اوتيل (بسول) وكان من الاوتيلات الفخمة ويقع في ساحة الزيتونة ـ وهو نفس الفندق الذي نزل فيه قيصر ألمانيا غليوم الثاني عند زيارته الى بيروت والقدس .

ومن ذكرياتي في هذاالفندق ان الخدم فيه كانوا يحضرون لنا الماء لغسل ايدينا ووجوهنا صباحاً بالأواني والطاسات ، فيسكب الخادم على ايدينا ونحن نغسل وجوهنا اذ لا يوجد حمامات خاصة فيه ، وبقينا في ذلك الأوتيل ثلاثة أيام بانتظار الباخرة التي سوف تقلّنا الى مرسيليا في فرنسا ،

وقد استغرقت رحلتنا من بغداد الى بيروت ثلاثة أيام في الوقت الذي استغرقت الرحلة التي سبقتنا لطلاب البعثة العراقية الى الجامعة الامريكية في بيروت ٢٢ يوماً حيث ابحروا من البصرة وسلكوا الخليج العربي والبحر الأحمر ثم الى السويس ثم الى الاسكندرية ومنها الى بيروت وكان من اعضاء تلك البعثة (محمود فتاح) الاخ الصغير لنوري فتاح ، وفاضل الجمالي وغيرهم .

ومن ذكرياتي عن بيروت اننا كنا لا نملك نقوداً لبنانية وانما كنا نحمل باونات استرلينية ، فذهبنا الى بنك زلخا الذي كان قريباً من الاوتيل وكان يملكه شخص واحد اسمه زلخا ومن الصدف ان زلخا قد ركب معنا في سيارة (نيرن) من بغداد وتعرفنا عليه في الطريق ولما كان المبلغ الذي كنا نريد تصريفه هو خمس باونات وكان البنك لا يتعامل بهذه المبالغ الزهيدة وعليه ارسل زلخا هذه الورقة بيد أحد الموظفين الى أحد الصرافين خارج البنك فصرفها لنا .

ومما اذكره في بيروت أيضاً أنني وصديقي مزهر الشاوي ذهبنا لزيارة صديقنا عبد الرزاق الظاهر وكان يَدْرُس في الجامعة الامريكية ببيروت ، فركبنا الترامواي وذهبنا اليه والتقيناه فدعانا الى مصيف عاليه وأمضينا فيه ساعات من المتعة والتنزه ثم رجعنا الى سوق بيروت واشترينا بعض الحاجيات ، وعلى العموم فقد كانت الحياة في بيروت بسيطة وكانت بيروت يومها صغيرة فيها ساحة الزيتونة تقع آخر المدينة ، ومن الجهة الثانية ساحة البرج ، وكانت المدينة تغلق حوانيتها يوم الاحد طوال اليوم وشاهدنا في هذا اليوم فرقة موسيقية سنغالية تقوم بالعزف في حديقة صغيرة بساحة البرج وبوسط الحديقة حوض ماء ، فيخرج أهل بيروت ليتفرجوا ويسمعوا الموسيقى .

وبعد ثلاث أيام من الانتظار جاءنا طبيب الشركة اللبناني ولقّحنا بلقاح لا نعرفه وأخذ من كل واحد منا باوناً اجرة عن هذا اللقاح في الوقت الذي كانت الشركة قد دفعت له الثمن مقدماً .

وعندما وصلنا إلى الميناء ركبنا زوارق عادية واتجهت بنا إلى الباخرة التي كانت راسية في عرض البحر فأدلي لنا سُلّم من الحبال صعدنا به إلى ظهر الباخرة وكانت اسمها (لامارتين) وهي أصغر باخرة للركاب بمخر عُباب البحر الأبيض المتوسط ، وكانت هذه أول تجربة لي في ركوب البحر .

وسارت بنا الباخرة من بيروت إلى الإسكندرية ، وعندما وصلنا الإسكندرية بقينا يوماً وليلة ونزلنا إلى المدينة واستأجرنا سيارة تاكسي لنرى معالمها ، وبينما كنا نتجول في المدينة اقترح علينا السائق أن نذهب لمشاهدة «أبو الهول» فقلت له أن أبا الهول بعيد عنا كما أعرف وأنه في الجيزة فقال لنا : بل هو قريب وسأوصلكم له فوافقناه على ذلك وأخذنا إلى مقبرة في الإسكندرية وأرانا قبراً مشيّداً على شكل «أبو الهول» فقلت للسائق : أهذا أبو الهول ؟ فقال «لا ده بأه عم أبو الهول» !

ورجعنا إلى الإسكندرية ونزلنا من السيارة وأخذنا بالتجوال في المدينة بحثاً عن مطعم نأكل فيه ، وفي الطريق صادفنا شخصاً يلبس ملابس محترمة يكاد يكون كاللباس الرسمي الذي يلبس في الحفلات الرسمية ، فسألناه عن مطعم قريب ، فقال لنا : إنني ذاهب إلى أفخم مطعم فتعالوا معي لأدلّكم عليه فأخذ يسير بنا في الطرقات ، وكنا نشاهد في الطريق مطاعم كثيرة ونقول له : هذه هي المطاعم ! فيقول إني أُدلكم على أفخم مطعم وآخر المطاف وصلنا إلى مطعم شعبي ، وصار هذا الرجل يطلب من جميع المأكولات ويلتهم الطعام بنهم شديد وفي النهاية طلب قائمة الحساب وطلب منهم تخفيضاً وإذا بسعر القائمة يعادل ثمن طعام شهر كامل له فدفعت ثمن القائمة مكرهاً .

وبعد هذه الجولة رجعنا إلى الباخرة وسارت بنا متجهة إلى مرسيليا .

في الطريق إلى مرسيليا

وصادف أن البحر كان هائجاً في ذلك الموسم ، مما اضطر ربّان الباخرة أن يغير سيرها ثلاث مرّات تجنباً للعواصف التي قد تؤدّي إلى غرق الباخرة .

وقد نزلت وصاحبي في (كبين) في غرفة واحدة وكنا نربط أنفسنا بحزام فوق الفراش حتى لا ننقلب منه لشدّة تأرجح الباخرة ، ولم يصادف أن تناولنا طعام الغذاء في مطعم الباخرة بسبب هياج البحر إلا يوماً واحداً ، وأصيب ركاب الباخرة بدوار البحر مما اضطر أحد الركاب وهو فرنسي أن يلقي بنفسه في البحر تخلّصاً من هذا الدوار ، وقد أوقفت الباخرة وانتشلت الجثة وأجريت لها مراسيم الميت ووضعت في صندوق وألقيت ثانية في البحر ، وبقيت زوجته تنتحب وتبكي طيلة مدة السفرة ، وجمع ضابط الباخرة لهذه الزوجة البائسة مبلغاً من المال لإعانتها على سفرها .

واستغرقت الرحلة المليئة بالأهوال ١٧ يوماً بدلاً من ثلاثة أيام ووصلنا مرسيليا بعد مشقة عظيمة وفي الميناء استقبلنا موظف شركة (كوك) وأرسلنا بواسطته برقية إلى لندن باللغة الانكليزية مفادها : أننا سنصلكم اليوم ، وكانت البرقية تؤرخ وصولنا إلى باريس وليس إلى لندن ، وكان هذا خطأ وقعنا فيه بسبب دوار البحر ، كما يبدو .

ومن المحطة نفسها ركبنا قطاراً آخراً إلى (كاليه) ومن (كاليه) ركبنا الباخرة مباشرة إلى الدوفر فقطعنا بذلك بحر المانش ، ومن (الدوفر) ركبنا القطار إلى (لندن) .

وصلنا محطة فكتوريا في لندن ، وكنا نتوقع أن يكون في استقبالنا ممثل عن المفوضية العراقية في لندن حيث لم نفطن بعد للخطأ الذي وقعنا فيه عندما أرسلنا البرقية ، ووقفنا بانتظار الممثل ولبسنا

السدائر على رؤوسنا ليتعرف علينا ممثل المفوضية ، وبعد فترة طويلة من الانتظار التقينا بأحد الطلاب المصريين المقيمين في لندن فاستعنا به للوصول إلى رجل الشرطة الذي أرشدنا بدوره لمكان المفوضية العراقية .

وركبنا السيارة بصحبة الطالب المصري للوصول إلى العنوان الذي حصلنا عليه من الشرطي وحين وصلنا إلى هذا العنوان فإذا به أحد الممثليات الهندية وساعدتنا سكرتيرة الممثلية فاتصلت هاتفياً بالمفوضية العراقية وبعد مدة وجيزة جاءنا أحد الموظفين فيها وهو (كاظم الدجيلي) وهو من الأدباء والشعراء الذين سمعنا بهم في العـراق فقلت له : لقد أبرقنا لكم برقية نخبركم فيها بيوم وصولنا ، فأجابني بحدة إن في ذلك اليوم يصل إلى المحطة مئات الألوف من البشر وكان عليكم أن تعيّنوا الساعة والقطار ـ وكان محقاً ـ غير أن التعب ووعثاء الطريق قد أثرت فينا ، فبادرته بالقول : أستاذ كاظم ألست القائل :

لا الـلّه يـنـفـعـني ولا الـوطـن الـنـافـعـان المـال والـبـد

وحين سمع هذا البيت اشتد غيظه وقال بحدة ظاهرة : أنت جئتني من النجف إلى لندن لتذكرني بهذا البيت ، أتريد أن تقطع رزقي ، ألم تحفظ من شعري سوى هذا البيت ، والمهم فإنه اصطحبنا إلى بنسيون «رسل سكوير» القريب من جامعة لندن ، وطلب منا البقاء فيه حتى يهيء لنا السفر إلى مكان دراسة اللغة الانكليزية ، وبقينا في لندن يومين ، والتقينا خلالها بـ (ياسين العمر) وكان يومها طالباً في لندن ، وبعد ذلك غادرنا إلى قرية (رايزلي) بالقطار .

وصلنا قرية (رايزلي) حيث يوجد المكان الذي نتعلم فيه الإنكليزية والتحضير إلى الدراسة ، وكان تابعاً لأحد الكنائس وهناك استقبلنا القس المشرف على الكنيسة واسمه (المتردودس) ودرجته الكهنوتية (ڤكر) وأخذنا إلى الدار التي سوف نقيم فيها وهي تابعة إلى الكنيسة ، وهذا القس وغيره من القساوسة يُنتخبون من قبل مدير التلاميذ الذين يأتون من المستعمرات البريطانية لإكمال دراستهم في بريطانيا وهذه المديرية هي أحد فروع ممثلية التاج البريطاني التي تنظر في شؤون المستعمرات من بيع الأسلحة والمهاجرين الإنكليز وغيرها من شؤون الامبراطورية ، وكان المدير الذي يشرف على شؤون الطلاب الوافدين من المستعمرات يهودياً أصله من بغداد وكذا معاونه والإثنان اسمهما (اسحاق) .

ووصلنا إلى الدار التابعة لكنيسة الڤيكرج وكان إلى جانبها مقبرة صغيرة للقرية وبجانبها حديقة كبيرة فيها فاكهة (المرموظ) ، ووجدنا في الدار يوسف الكيلاني وكان سبقنا بسنة للتحضير للدخول إلى جامعة اكسفورد ، وأتذكر ممن كان هناك أيضاً : البرنس أفراحام ولي عهد سلطنة جوهور التي تقع في جنوب الملايا ، ومهراجا جيبرر وهو من أغنياء الهند وتقع إمارته في ولاية راجهستان الهندية الحالية ، وشخص من اليابان اسمه (تكوچي) ، وتلميذ آخر من ملايا اسمه (ثين) وكلهم جاءوا لتعلم الانكليزية والدخول إلى أحد الجامعات .

وفي هذه الأبرشية قمنا بتعلم مختلف الدروس باللغة الانكليزية ودرسنا فيها عدد من الأساتذة وساعدنا يوسف الكيلاني على الإندماج في هذا المحيط الغريب علينا وعلى الرغم من أن محيطه قروي بسيط إلاّ أنه ليس من السهل على شخص يأتي من (النجف) وآخر من (تكريت) أن يندمجا بهذا المجتمع بسهولة ويسر .

وبقينا في هذه الأبرشية ٦ أشهر نحضر للدخول إلى الكلية ، ومن ذكرياتي في هذه الأبرشية أنه وجدت في غرفتي قنينة ماء وكنت قد عطشت فشربت منها ، وعندها جاءتني زوجة القس وهي متخرجة من اكسفورد ووجدت أن ماء القنينة قد نقص فسألتني عن ذلك فأجبتها بأنني شربته فتعجبت وقالت : إنني احتفظ بهذه القنينة وبنفس المكان منذ ثلاثين عاماً حتى صفىٰ ماؤها وراق وأصبح يشبه الماء المقطر ، فقلت : إن الماء وُجد منذ لخليقة والماء هو الماء وإذا أعجبك التقطير فهو متوفر في الصيدليات ، فسكتت .

وعندما افتتحت السنة الدراسية ذهب مزهر اسماعيل الشاوي قبلي إلىٰ سانت هيرست ، وبقيت أنا ويوسف الكيلاني في هذا الدار مع بقية التلاميذ ، ولما فتحت أكاديمية الفنون العسكرية «وولج» تركت الدار فجاء إليها بعدي مباشرة غازي الداغستاني وصباح نوري السعيد وصائم العسكري ابن رضا العسكري (شقيق جعفر العسكري) وذلك للدراسة أيضاً .

وفي بداية دخولي إلى الكلية قابلت ضابطين انكليزيين وأخذوا يسألونني عدة أسئلة عن عائلتي وهل فيها من خدم في الجيش البريطاني فأجبتهم بالنفي لأنهم كان يفضلون الطلاب الذين أدى آباؤهم خدمات للامبراطورية البريطانية ، أما بقية الأسئلة فكانت روتينية عن دراستي وتحصيلي وغيرها .

وهذه الكلية هي التي تخرج فيها الامبراطور نابليون الثالث وله فيها تمثال في وسط ساحة الكلية ، واللورد كشنر ، والشاعر اللورد بايرون وله تمثال نصفي موجود في المكتبة التي تعدّ من أقدم مكتبات انكلترا ، ومن المتخرجين فيها أيضاً السير جون وورد الذي صار فيما بعد مديراً لميناء البصرة ، والأستاذ ناجي طالب رئيس الوزراء العراقي الأسبق ، ورفيق عارف ، وعباس علي غالب ، وحقي عبد الكريم وغيرهم ، وعلى العموم فالكلية أقدم أكاديمية للفنون العسكرية في أوربا ، ولها تقاليدها الخاصة الملتزمة بها أشدّ الالتزام ، ويتخرج منها اربعة صفوف من الطلاب : صنف الهندسة العسكرية ، وصنف المدفعية ، وصنف مخابرات الميدان ، وصنف الدروع بعدما أدخلت الدروع إلى تسليح الجيش البريطاني .

وكانت الدراسة فيها ثلاثة فصول كل فصل يستمر من ٦ إلى ٧ أشهر ويتخللها عطل ، ويكون مجموع الدراسة فيها سنتين أو تزيد عليها عدة أشهر .

وبعد التخرج منها يُرسلُ الأوائل إلى صنف الهندسة في كلية جتهام للتخصص أما القسم الثاني فيُرسلُ إلى المدفعية (لارك هيل) والثالث يُرسل إلى كلية (كاترك) .

والدخول إلى هذه الأكاديمية كان يجري بامتحان ، وكان يتقدم إليها في كل عام أعداد كبيرة جداً للدخول إلى مختلف الكليات العسكرية ، وينتخب أول أربعمائة طالب فيرسلونهم إلى الكلية البحرية في (كرنتس) التي فيها المرصد البريطاني وفي ذلك المرصد أبراج بأسماء عربية للفلكيين العرب ، والأربعمائة الثانية إلى (وولج) والأربعمائة الثالثة إلى (گرانول) للتخصص في الطيران ، والأربعمائة الرابعة إلى (سانت هيرس) كلية المشاة ، وهكذا حسب الدرجات .

وقد سبقتنا (مصر) في إرسال بعض طلابها إلى هذه الكلية ، وقد خصصت ـ لطلاب مصر ثم أُلحق بهم طلاب العراق ـ طاولة في مطعم الأكاديمية عليها لوحة مكتوب عليها «مخصصة إلى تلاميذ الشرف» وكان الطلاب الانكليز لا يختلطون معنا ومع المصريين أول الأمر ترفعاً واستكباراً حتى كانوا

يلقبون الطلبة المصريين بكلمة «ووج» ، وهو مصطلح عند الإنكليز يعني «الدمية السوداء» ومنذ ذلك الحين تركنا الجلوس على تلك الطاولة ، وأخذنا نندمج مع التلاميذ الآخرين .

ومن زملائي الطلبة المصريين الذين كانوا معنا : عبد الحميد غالب الذي صار فيما بعد سفيراً لمصر في بيروت وممثلاً لمصر في هيئة الأمم المتحدة ، ويوسف ابراهيم الذي أصبح سفيراً لمصر في طوكيو ، وسامي شرف الذي أصبح وزيراً للداخلية ورئيساً لمكتب جمال عبد الناصر ، وفراج أوليجي وغيرهم والجميع شغلوا مناصب عالية في مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

ومن ذكرياتي عن الكلية أن محاضرين متخصصين بمختلف شؤون الامبراطورية ، وشغلوا مناصب عالية في الدولة ، كانوا يُستقدمون لإلقاء محاضرات فيها .

ومنهم السير برسي كوكس أحد الذين ساهموا في تأسيس الدولة العراقية والذي عُين مندوباً سامياً في العراق في فترة الانتداب ، وقد ألقي كوكس علينا ست محاضرات عن تشكيل الحكومة العراقية ، ولكن ادارة الكلية منعت الطلاب العراقيين من حضورها حرصاً على أن لا تجرح هذه المحاضرات شعورنا فقدمت احتجاجاً شفوياً إلى آمر الكلية الميجر جنرال (دبري) وقلت له إذا كنتم تمنعوننا من حضور الدروس والاستماع إلى هذه المحاضرات فيجب أن نعفىٰ من الامتحان بها ، وكانت هذه الدروس وغيرها تعطىٰ علىٰ أساس أنها معلومات عامة في شؤون الامبراطورية يحتاجها الضابط الانكليزي لادارة المستعمرات التي يعيّنون بها إذا اقتضت الحاجة ، وقد سمح لي آمر الكلية بالدخول إلى الصف والاستماع لتلك المحاضرات ، ومما أذكره أن كوكس عرض لنا في محاضرات عن العراق ثلاث صور احداها صورة شارع الرشيد وهو خالي إلاّ من بعض المارّة ، والصورة الثانية قفّة محمّلة بالرقي تفرغ حمولتها في شريعة النواب ببغداد ، والثالثة صورة لحيوان الزرافة داخل قفص في مدخل السفارة البريطانية في بغداد .

وبعد انتهاء المحاضرات أقيمت حفلة عشاء إلىٰ السير برسي كوكس فأجلسني بجانبه .

ومن أهم ما تطرقت إليه هذه المحاضرات الست عن نوع الحكم في العراق بعدما استقل عن الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، وكان البحث يدور حول مصير العراق بين الأوساط السياسية البريطانية وكان من الأشخاص البارزين في تخطيط هذه السياسة : السير برسي كوكس ، ومس بيل ، وفيلبي وغيرهم ، وكانت هناك ثلاثة حلول تدور في أذهانهم وهي :

١ ـ إلحاق العراق بحكومة الهند ونقل ستة ملايين هندي وإسكانهم في العراق .

٢ ـ اتخاذ العراق مصيفاً ومشتى لحكام الامبراطورية وليجعلونه (جنة عدن) كما كانوا يدعون .

٣ ـ اتخاذ العراق مزرعة نموذجية لانتاج الحبوب وتشجيع رأس المال البريطاني لاستثمارها .

وقد ظلت هذه الفكرة الأخيرة تدور في أذهان الساسة البريطانيين وأصحاب رؤوس الأموال ، فعندما تشكل الحكم الوطني بادر هؤلاء الساسة هذه الفكرة على شكل مصغّر فكونوا شركة مساهمة يتألف مجلس ادارتها من عدد من اللوردات في لندن ، واقتطعوا مساحة واسعة من الأرض في جنوب بغداد في (اللطيفية) وانتدبوا لها مديراً انكليزياً يسكن في المشروع هو (المستر كربت) كما ساهم بعض العراقيين وهم قلة علىٰ أمل الربح ، ولأول مرّة استخدموا الفلاحين فيه بأجور يومية متطوعة ، ولم يتبعوا الأساليب الزراعية التي كانت سائدة في البلد وهي إعطاء الفلاحين حصة من الحاصل ، ولكن

هذا المشروع لم يكتب له النجاح ولم يحقق أيّ أرباح ، وأخيراً اضطروا إلى تصفية الشركة وبيعها إلى الحاج عبد الهادي الچلبي التاجر المعروف بكفالة البنك العثماني ، وقد قسمها الچلبي إلى قطع صغيرة ذات خمسة دونمات وباعها إلى الأهلين وسدَّد أثمانها من أرباحها ووزّع قسماً منها على المتنفّذين بأسعار رمزية .

ومن ذكرياتي أيضاً : أن أحد القساوسة لكنيسة الأكاديمية ألقى علينا محاضرة عن عصبة الأمم ، وطلب من التلاميذ كتابة موضوع حول هذا الموضوع فكتبت له بحثاً ذكرت فيه ، إن تكوين عصبة الأمم ليست أول محاولة في التأريخ فقد سبق العرب بعقدهم مجلس شورىٰ يضم رؤساء القبائل والمتنفّذين للتداول في شؤون القبائل والنظر في النزاعات والخلافات وكان لقريش دار لفضّ هذه المنازعات سميت بدار الندوة ، فتعجب القس من ذلك وشكرني على هذه المعلومات .

ومن الذكريات التي لا أنساها : زيارة المهاتما غاندي إلى لندن سنة ١٩٢٨ لحضور مؤتمر الطاولة المستديرة فجاء ملتحفاً بأزار قطني حاكه بيده يسحب معه عنزته التي كانت تلازمه وكان حليبها مصدر غذائه ، وكان في استقباله رئيس وزراء انگلترا آنذاك «مكدونالد» بقبعته الطويلة ولباس البنجور الرسمي .

وعلىٰ ذكر (الطاولة المستديرة) فإني أورد قصة سمعتها في حينها عن أساس هذه الطاولة ، فقيل إنه في القرن الثامن عشر كانت الحروب مستعرة ومستمرة بين الدويلات الأوربية المختلفة فنادىٰ الحكماء بضرورة وضع حدّ لهذه الحروب فاقترحوا عقد مؤتمر يضم أكثر من (٢٨٠) أميراً ورئيساً ، وصار الاعتراض في من سيدخل القاعة أولاً ؟ ومَنْ سوف يترأس الاجتماع ؟ فاقترح أحد العقلاء أن تنشىء قاعة في (لاهاي) ذات (٢٨٠) باباً ويوضع في وسط القاعة طاولة مستديرة فيدخل الأمراء إلى القاعة في آن واحد ويجلسون حول الطاولة ، ولا أعرف إذا نفذت هذه الفكرة اللطيفة أم لا !

وأعود إلى زيادة المهاتما غاندي لانكلترا حيث شاهدت مظاهرة كبيرة لعمال النسيج العاطلين عن العمل في (مانجستر) يطالبون بالخبز ويهتفون بما ترجمته «غاندي نريد خبزاً» .

حيث أُغلقت تلك المعامل بعدما أدخل غاندي (المغزل) إلى كل بيت في الهند ليغزلوا وينسجوا ما يحتاجونه من الملابس بأيديهم ، ويستغنون عن الأقمشة الانكليزية التي كان تبيعها بريطانيا في أسواق الهند .

فانتقم غاندي بذلك للعاملات الهنديات اللواتي كُنّ يعملن في معامل النسيج الانكليزية في الهند التي هي فروع للمعامل الانكليزية في بريطانيا ، فكانت المرضعات يأتين بأطفالهن إلى المعامل وكان يخصص لهؤلاء الرضع محلاً وموظفات ترعى هؤلاء الأطفال وكان يُوضع للأطفال الأفيون مع الحليب لكي يناموا حتى تنصرف أمهاتهم إلى العمل وهذا الأسلوب سبّبَ كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة في المجتمع الهندي فقد كان الأطفال ينشأون وهم يدمنون الأفيون .

ومن ذكرياتي أن الميجر جنرال جاكوب ألقىٰ علينا محاضرة عن مضيق خيبر ، وكان الانكليز يولون هذا الموضوع أهمية لأنهم يعتبرونه مدخل روسيا إلى المياه الدافئة (الخليج والمحيط الهندي) .

وأذكر في تلك الأيام أنني كنت أتدرب على لعبة المبارزة بالسيف وهي «الشيش» كما يدعونها في مصر ، وفي ذات يوم كنت أتدرب مع أحد طلاب الأكاديمية الإنكليز فوجهت إليه ضربة أسقطت السيف من يده فغضب واعتبر ذلك استفزازاً وقال : إن هذه لعبة يجيدها النبلاء ولست منهم ! فقلت :

إذا كان ذلك حقاً فلتتبارز ، وخلعت القناع عن وجهي ورفعت السداد من رأس السيف وقلت له : كن على حذر ـ حسب أصول المبارزة بالسيف ـ فاضطرب ، ثم تدخل المدرب في الأمر وأصلح بيننا . ومن العراقيين الذين برزوا في هذه اللعبة «موسى علي الطيار» وكان يلعب في سباقات الأكاديمية ، وقد استفاد من خبرته السابقة حين كان تلميذاً في المدرسة الحربية العراقية صنف الخيالة .

وفي أحد الأيام ذهبت وزميلي في الدراسة الملازم جواد حسين (الطيار فيما بعد) لزيارة المتحف الحربي في لندن فوجدت فيه كثيراً من الأسلحة والمدافع المختلفة الصنع التي غنمها البريطانيون من مختلف المستعمرات ، وجلب انتباهي جمجمة انسان معلقة على الجدار في الطابق الأول وقد كتب تحتها رقعة جاء فيها ـ إن هذه الجمجمة نموذج لأكثر من عشرين جمجمة محشوة بالتنباك لأفراد من قبيلة تسكن على ضفاف (نهر الگانج) في الهند ، وهم يعتقدون أن من يمس جسمه التنباك يصبح نجساً ولا يمكن تطهيره ، وكان الحاكم الإنكليزي في مقاطعة أوتر برديش الهندية قد ألقىٰ القبض علىٰ عشرين شاباً ! وتطلع رؤوسهم ! وملأ جماجمهم بالتنباك وعلّقها في شوارع المدينة تأديباًللشبان حيث يقال بأن أحد الشبان من تلك المدينة حاول أن يعاكس إحدى الفتيات الإنكليزيّات التي كانت تسبح في نهر الگانج ، وأرسل ذلك القائد هذه الجمجمة مع نموذج من المدافع إلى المتحف .

ووجدت في وسط القاعة خزانة وفيها كتاب مصور فيه صور نباتية ومخطوط باللغة الفارسية ، وكُتب تحته : «هذا القرآن الذي يقدّسه المسلمون» فعجبت أشد العجب لهذا الجهل المطبق ، وذهبت إلى مدير المتحف وقلت له إن هذا الكتاب فارسي وموضوعه النبات وليس هو القرآن الكريم كما هو مكتوب بجانبه ، فشكرني على هذا التصحيح واعتذر ، وقال : تردُ إلى المتحف هدايا من مختلف الناس ، وهم الذين يعلّقون ويكتبون شروحاً لها ، فقلت له لا يجوز وضعها بدون تمحيص وواعدني بأنه سوف يصححها .

ومن تقاليد هذه الأكاديمية أن طلاب الصف الأول لا يحقّ لهم أن يُطلقوا شواربهم ، كما لا يُسمح لهم أن يسبحوا عراة في حوض السباحة التابعة للأكاديمية إلّا في الدورة الثانية والثالثة .

وحين يتخرج الطلاب من آخر دورة ويستقبلون تلاميذ الدورة الأولىٰ يستقبلونهم بالضرب والرمي في المياه ويدخلونهم في السراديب المظلمة ويمررونهم من داخل الخزانات المليئة بالأشياء المهملة فيرصلونهم إلى غرف النوم وهم منهكي القوى ، وهذا لكسر شوكة الغرور الشخصي .

وعند تخرج طلاب الدورة الثالثة تقام حفلة في الليل وعند نهاية الحفلة يعمد الطلاب إلى رمي كتبهم وفراشهم خارج الغرف في الساحات وكثيراً ما كان يلطخون جدران غرفهم بالحبر ويحضرون يرمي الأشياء التي يستغني عنها في الخارج .

وجرياً على الحرية المتاحة لنا وحباً للمداعبة قمت وزميلي انكليزي بالصعود على السلم المعد للتدريب على إطفاء الحرائق ، ووضعنا صفيحة القاذورات علىٰ تمثال الملكة فكتوريا المنصوب في وسط الساحة ، ثم ارتقينا برج الجامعة وكانت فيه ساعة كبيرة فأخّرنا العقرب ساعة واحدة ، وفي صباح اليوم التالي أقيم استعراض كبير لتخرجنا حضره كبار قادة الجيش البريطاني وحين حضروا في الساعة الثامنة صباحاً حسب ساعاتهم وجدوا ساعة الكلية تشير إلىٰ السابعة فحدث ساعتها ارتباك ولغط وأُعيد تصحيح عقرب الساعة .

(صاحب المذكرات) عندما كان طالباً في الكلية العسكرية ـ لندن ـ ١٩٢٧

وكان تخرجي في نفس الوقت الذي تخرج فيه زملائي من طلاب الكلية العسكرية في العراق وأُعتبرتُ متخرجاً معهم ، فمنحت رتبة ملازم ثاني ـ وأنا في لندن ـ وأخذت أتقاضى راتب مقداره ٣٠ پاوناً وهو يعادل ٤٠ روپية هندية وهي العملة التي كانت متداولة في العراق ، وكنت آخذ أيضاً مخصصات التلمذة ٣٠ پاوناً و ٥ پاونات للتنقل فيكون المجموع ٦٥ پاون .

وبعد أن انتهيت من الدراسة في الأكاديمية التحقت بمدرسة المدفعية في (لارك هل) للتخصص في المدفعية وبقيت فيها ستة أشهر حتى تخرجت وكُتب عني تقرير ما يزال حتى الآن في إضبارتي بوزارة الدفاع وفيه إشادة بنجاحي وتفوقي .

ومما أذكره في تلك الدورة أنني صادفت مرة (الميجر كلايتن) الذي لعب دوراً في تاريخ العراق الحديث السياسي والعسكري ، وقد جلب انتباهه السدارة التي كنتُ أضعها على الرأس فسألني : هل أنت من العراق ؟ فقلت : نعم ، ففرح بي فرحاً كبيراً ودعاني إلى داره على دعوة غذاء لليوم الثاني وعين لي داره على الخارطة حيث كانت تحت امرته قوة عسكرية مكونة من لواء مدفعية تعسكر قرب مدرسة المدفعية ، وذهبت إلى داره في الموعد المحدد ، واستقبلني من الباب ، وكانت امرأته متقدمة في السن ولم تنبس بكلمة طيلة مدة الغذاء عدا كلمات الترحيب والمجاملة ، وقد دعا معي إحدى قريباته من الشابات ، وبعد الغذاء أراني طاولة كبيرة موضوعة في إحدىٰ أركان غرفة الإستقبال عليها مختلف الهدايا التي قدمت له أثناء خدمته في العراق ومنها خناجر ذهبية وقسم منها مرصع الأحجار الكريمة وكان يتلقاها من شيوخ العشائر ، فعلقت على هذه الهدايا إن هذه عادة غير مستحبة عند بعض شيوخ العشائر حيث يُلبسون عبيدهم مثل هذه الخناجر الذهبية للدلالة على غناهم وثروتهم .

وخلال العطل كنت ازور معالم المدينة وأهمها المتاحف التي انتشرت في مختلف انحائها وعلى ماتذكر هنالك (٢٨) متحفاً في لندن وبمختلف المواضيع تجدها في خرائط المدينة ، واهمها «متحف لندن الكبير» وقد ملىء بما نهبه الانكليز من مختلف البلدان التي استعمروها ، وليس فيه إلاّ الشيء القليل الذي يخصّ بلادهم ، وفي هذا المتحف خصصت احدى عشر قاعة للآثار العراقية التي سرقها الانكليز حين سيطروا على العراق ، ومن جملة مارأيت في المتحف «قُفّة» مزفّتة وكانت من وسائل النقل النهري المستعملة في العراق وقد ارسلها الميجر ايدي الذي كان يعمل مستشاراً في الجيش العراقي في العشرينات .

وكان من متطلبات الدراسة في الاكاديمية دراسة لغة اُخرى غير اللغة الانكليزية واللغة الاخرى تكون من اللغات الاوربية الحديثة أو اللغات الشرقية كالعربية والسنسكريتية والفارسية والتركية وغيرها ، وكانت تُعطى جوائز للمتفوقين في تعلّم تلك اللغات ، فاخترت وزميلي المرحوم غازي الداغستاني اللغة الروسية وكان يدرسنا اياها جنرال متقاعد من الضباط القيصريين ، وقد تفوقنا في دراستها حتى قمنا نقرأ الكتب الروسية ، فقرأنا كتاب (طفولتي) عن حياة الكونت ليوتولستوي ودفعني ذلك للاهتمام بكتب تولستوي وسواه من ادباء الروس ، وارشدني الاستاذ الى مجلدين ضخمين الفهما البرنس مارسكي وهو منفي في باريس حيث انضم الى جماعة الكتاب البيض المنفيين ويتضمن كتابه دراسات عن الادب الروسي وشخصياته الذين سبقوا الثورة ، ولجلالة قدر الكتاب اُعفي عن مؤلفه الامير وأعيدت له الجنسية الروسية ، وكنت اطالع ايضاً ما تُرجم من الروسية الى الانكليزية مثل كتب

ميشيل أزباشيف (نقطة الانكسار) و(سانيين) ، وقمت بعد ذلك بترجمة احدى قصص تورجنيف واسمها «الآباء والبنون» .

ومما اذكره ايضاً انني خرجت في احدى العطل المدرسية وزميلي في الاكاديمية عباس علي غالب - الذي اصبح مديراً للشرطة العام فيما بعد - خرجنا لاستئجار غرفة في الحي المجاور الى المتحف البريطاني وجامعة لندن ، وهو حي (رسل سكوير) حيث كانت هناك غرف معدة للايجار يستأجرها الطلاب ويديرها ايطاليون ويونانيون واحياناً ايرلنديون ، فطرقنا الباب على أحد الدور فظهرت لنا سيدة في متوسط العمر فقلنا لها نريد استئجار غرفة من الدار ، فسألتني : هل انتم بيض؟ فاستغربت من هذا السؤال لانني كنت اسمعه لاول مرّة في حياتي فمددت لها ذراعي وقلت لها : نعم نحن بيض ، فقالت : انا لا أقصد هذا بل اقصد من اي بلد أنتم ، فقلت : من العراق ، وهو بلد عربي ، فاغلقت الباب بوجهنا حيث اعتبرتنا من الملونين فاستغربنا ذلك جداً لهذه العنصرية المقيتة .

ومررت ذات مرّة بساحة بيكاديلي الشهيرة في لندن فرأيت متسولاً على الرصيف وقد مدّ يديه يستجدي المارة ، وينادي بأعلى صوته «انتم بيض فليس من مروئتكم ان تتركوا مواطناً ابيض مثلكم يتضور جوعاً» فتذكرت حالاً المثل العراقي المعروف «مجدي وعليجته قديفة» . والحقيقة ان عدد المتسولين قد ازداد في تلك الايام بشكل ملحوظ حيث كان العاطلون عن العمل في حوالي ١١ مليون عاطل يعيشون على ماتعطيهم الحكومة من الاعانات بسبب الازمة الاقتصادية وتلك الاعانات بسيطة لاتكفيهم مما اضطر بعضهم الى دفع نساءهم لامتهان البغاء لسد رمقهم .

وهذه الحوادث جعلتني اربط بينها وبين ماكان يُطلق على التلاميذ المصريين كلمة «ووچ» وهي الدمية السوداء ازدراءاً بهم ، ولاول مرة أُدرك خسة التمييز العنصري وحقارته .

وقبيل انتهاء دراستي في انكلترا عرفني محمد حديد على فريد زين الدين السوري الجنسية والمقيم في باريس وكان من الاوائل الذين عملوا للقضية العربية ، وطلب منا ان نتصل بالطلاب العرب الذين يدرسون في انكلترا لتأليف جمعية عربية تعمل من اجل القضية العربية في انكلترا وكانت هناك بعض الجهود التي لم تستمر طويلاً .

وقبيل سفري الى العراق ذهبت والصديق محمد حديد الى تناول الغذاء في مطعم (ديس) وهو مطعم صغير يقدم الاكلات التركية فرأيت هناك نوري السعيد رئيس الوزراء وزوجته وداود الحيدري يتناولون الغداء فتعرفت على نوري السعيد وكان ذلك اللقاء الاول معه[1] .

العودة الى العراق شتاء ١٩٣١

وبعد أن اكملت دراستي في لندن وتخرجت من الاكاديمية العسكرية اخذت بجمع امتعتي استعداداً للسفر ، وصادف في ذلك الوقت ان دورة الطيارين العراقيين الاولى التي أُرسلت الى لندن قد تخرجت هي الاخرى من كلية الطيران في «كراون ويل» في الشمال ، وهم :

---

(١) سافر نوري السعيد رئيس الوزراء الى لندن لمفاوضة شركة النفط في موضوع تعديل امتيازها وقد اسفرت المفاوضات الطويلة التي جرت بين الشركة والحكومة لهذا الغرض عن توقيع اتفاقيتين معدلة للاتفاقية الاولى بتاريخ ٢٤ مارت ١٩٣١ .

محمد علي جواد ، وموسى علي ، وناطق الطائي ، وحفظي عزيز ، وابراهيم ناجي ، وناصر الجنابي[٢] .

وكانوا يتهيأون للسفر الى الوطن ايضاً فارسلت امتعتي الزائدة مع امتعة محمد علي جواد وموسى علي وقد أرسلت بالباخرة .

ووضعت خطة للسفر الى العراق تضمنت سياحتي في اوربا ، وبينما كنت على وشك السفر وقع جواز سفري في موقد النار الذي في غرفتي فاحترق بعضه فاخذت الجواز الى القائم بأعمال الممثلية العراقية المرحوم جعفر العسكري وكان قد تسلم هذا المنصب من مزاحم الباچچي الذي بقي في لندن . وكانت لي بالعسكري معرفة جيدة ، فاصدر لي (جواز مرور) عوضاً عنه وكان رقمه (١) حيث لم تكن لدى الممثلية جوازات سفر آنذاك ، وأخذت سمات المرور من الدول التي كنت انوي زيارتها ، وتوكلت على الله .

السفر الى باريس

سافرت من لندن الى ميناء دوفر بالقطار ومنها عبرت بحر المانش بالباخرة الى كاليه ومنها الى باريس وقد زودني أكرم مشتاق بكتاب توصية الى صديق له يدرس طب الاسنان في باريس وهو فاضل الملي فذهبت اليه حال وصولي باريس على العنوان الذي احمله فالتقيته وساعدني في ايجاد غرفة في العمارة التي كان يسكنها ورافقني مشكوراً في زيارتي لمعالم المدينة وقد ابهرتني تلك المعالم التي لانظير لها في لندن ، لكن المدينة كما بدت لي حينذاك قاتمة ومكتظة بالسكان وضيقة الشوارع وهواؤها مشبع بدخان المعامل ، وبقيت في باريس حوالى خمسة عشر يوماً .

بروكسل

ثم سافرت الى «بروكسل» وكان الناس يدعونها بـ (باريس الصغيرة) حيث كان البلجيكيون يحاولون ان يقلدوا مايجري في باريس ولكن هيهات لأن بروكسل يومها لاتساوي غير مدينة صغيرة من مدن فرنسا .

برلين

ومن (بروكسل) ذهبت الى (برلين) ، وكنت مزوداً بعدة رسائل من الطلاب المصريين الذين كانوا يدرسون معي في الأكاديمية الى اصدقائهم المصريين الذين كانوا منتشرين في عواصم اوربا الغربية .

وحين نزلت (برلين) كنت احمل بعض عناوين الطلاب المصريين وبينما كنت في الطريق الى احد هذه العناوين رأيت لافتة مكتوب عليها «غرفة للايجار والتكلم باللغة الانكليزية» فدخلت الى شارع ضيق وله بوابة كبيرة في وسطها باب صغير لدخول الأفراد وسلكت زقاقاً ضيقاً الى سلم في العمارة التي فيها الغرفة فقابلتني امرأة عجوز وادخلتني الشقة وارتني الغرفة المعدّة للايجار وهي غرفة بسيطة بسرير

---

(٢) وصل هؤلاء الطيارون الخمسة بطائراتهم الى بغداد عصر يوم ٢٢ نيسان ١٩٣١ فاحتفلت بغداد بمقدمهم احتفالاً عظيماً وجاء اليها وفود تمثل الأولوية القريبة من العاصمة للاشتراك في هذا الاحتفال .

واحد وبجانبه قنينة ماء ، وكانت اجورها زهيدة جداً ، فاستأجرتها وسلمتني صاحبة الشقة مفتاح للباب الخارجية في الشارع ومفتاح آخر للشقة ، وعلمت فيما بعد انني اسكن في «الجيتو» وهي محلات اليهود وكانت هذه المحلة تغلق بابها الكبيرة والصغيرة عادة عند غروب الشمس ولايدخلها غريب إلاّ من لديه مفتاح للباب المؤدية الى المحلة .

و وضعت امتعتي في الغرفة وخرجت للتعرف على المصريين وكان هناك اكثر من عشرين تلميذاً جاءوا للدراسة بعضهم على نفقة الحكومة والبعض الآخر على نفقتهم الخاصة . وبواسطتهم تعرفت على معالم المدينة فزرت قصر بوتستدام الفخم . وقد جلب نظري طاحونة كانت في وسط الحديقة وقال لي الدليل : عندما شيد هذا القصر استملكت هذه الارض إلا ان الفلاح صاحب هذه الطاحونة رفض ان يبيع طاحونته هذه باى ثمن فتركت له ، والالمان يستدلون بتلك الحكاية على عدالتهم .

ثم زرت الاوبرا ، ومتحف برلين الذي فيه باب عشتار الأصلية التي نقلتها البعثة الالمانية من بابل ، وملأت قاعات المتحف بالآثار العراقية القديمة المسروقة من بلادنا .

وزرت أيضاً (الرايخشتاغ) وهو مجلسَ النواب الالماني ، قبل أن يتهم الشيوعيون بحرق جزء منه حينما جاء النازيون برجل معتوه اسمه (فاندرلوبا) وهو بلغاري الاصل ، وأتهموه بحرقه فاعترف امام المحكمة بأن (ديمتروف) الشيوعي البلغاري الاصل عامل المطبعة آنذاك هو الذي حضّني على حرقه غير أنَّالمحكمة برأت ساحة ديمتروف الذي سافر الى روسيا فاستقبلته زوجة لينين (كروبسكايا) ومنح الجنسية الروسية ثم أصبح فيما بعد سكرتيراً لرابطة الأحزاب الشيوعية في العالم (الكمنيترن) .

وكان من المناظر المألوفة في (برلين) الملاهي الخاصة بالمخنثين الذين يتزيون بزي النساء وكانت شوارع برلين واسعة ونظيفة خلاف ما كانت عليه شوارع (لندن) وقد قضيت في برلين مدة اسبوع .

ڤينا

ثم غادرتها الى النمسا بواسطة القطار فوصلت الى عاصمتها (ڤينا) ، فنزلت في أحد الفنادق ، و وضعت امتعتي فيه ثم خرجت استطلع البلد و وجدت الشوارع الكبيرة خالية من المارة ، و ذهبت الى الحديقة العامة ورأيت فيها ـ على ما قيل ـ اعلى دولاب هواء في العالم ، وفي المساء دخلت مطعم الفندق لتناول وجبة العشاء فلم يكن فيه سواي ، وفي اليوم التالي ذهبت مع أحد أصحابي المصريين الى مطعم كان يرتاده من قبل فوجدت المطعم خال أيضاً ، فسألت صاحب المطعم عن سبب خلو المدينة من المارة فقال: اننا كنا امبراطورية هابسبرك النمساوية وكانت نفوسها أكثر من ٦٠ مليون قبل الحرب العالمية الاولى واصبح اليوم عدد نفوسنا ستة ملايين بعدما جُزأت هذه الامبراطورية الى دول كثيرة مثل هنكارية وجيكوسلوفاكيا وقسم من يوغسلافيا وهذا سبب أيضاً هبوط أسعار الأبنية والعمارات الى أسعار زهيدة جداً .

وأعجبني في ڤينا الخلق الرضي ونظافة المدينة وجمال نساءها وبعد اسبوع من الإقامة فيها غادرتها الى هنكاريا .

هنكاريا

وصلت الى بوادابست والتي يسمونها بعروسة الدانوب وكانت المدينة مقسومة الى قسمين بودا وهو القسم المسكون من المدينة و(بشت) القسم الجبلي ، وزرت البرلمان الهنكاري وهو على شكل مصغر شبيه بالبرلمان البريطاني ، وقد أُلحق به مطعم تقدم فيه الأكلات الهنكارية ومن اشهرها الأكلة المشهورة «كولاج» وصادف خلال وجودي في بودابست ان جاء البالون الانكليزي رقم (١٠١) وهو في أول زيارة للبلد ، وقد كان قبله البالون الألماني المسمى (گراف زبلن) وهذه هي أول مرة تطير فيها البالونات الكبيرة الحاملة للركاب ومن التجارب التي كان يجريها العلماء من أجل صناعة طائرات ركاب كبيرة الحجم ، وتطير هذه البالونات عادة بالغاز وتوجه بالمحركات ، فهرع جميع أهالي (بودابست) الى القسم الجبلي (بشت) لمشاهدة هذا المنظر وقد أخذت لهذا البالونات عدة صور ومازلت محتفظاً بها .

ثم شاهدت القلعة التي سُجن فيها الشيوعين بعد أن قضى عليهم الادميرال هورتي ، وهذه القلعة شيدها بلايكن بعد الحرب العالمية الأولى .

وهنكاريا هي ثاني دولة شيوعية تؤسس بعد الاتحاد السوفيتي ، وقد هرب (بلايكن) بعد القضاء على حكومته الى روسيا وانتخب عضواً في مجلس السوفيات الاعلى في روسيا ، ثم أتهم بالتروتسكية وكان معارضاً لستالين فقتله الأخير .

وللادميرال (هورتي) الذي قضى على حكومة (بلاكين) الشيوعية ، قصة طريفة لا بأس بذكرها فقد كان ضابطاً برتبة ملازم في البحرية النمساوية وصادف زيارة الاسطول النمساوي الى ميناء اسطنبول وصادف ان أقيمت حفلة خيرية جُمعت فيها التبرعات من الحاضرين ، وكان (هورتي) منهم لكنه كان لا يملك ما يتبرع به ، فوقف في وسط المحتفلين واعلن بيع شاربه ، وبدأت المزايدة على شاربه حتى بلغ ثمنه بقدر ما جُمع من المال في ذلك اليوم ولكن الشارب بقي مفتولاً على وضعه في وجهه الوسيم وسمع بهذا الحدث السلطان عبد الحميد فكتب الى امبراطور النمسا مستحسناً الموضوع فارسل الامبراطور المذكور على (هورتي) ومنحه رتبة بحرية عالية في البحرية النمساوية ، وحين تمزقت الامبراطورية النمساوية الهنكارية جمع جمعاً من الضباط والجنود ومن المعادين للشيوعية وقضى على حكومته (بلاكين) ونصب نفسه وصياً على العرش وبقي محافظاً على هذا المنصب حتى الحرب العالمية الثانية حين انضمت هنكاريا الى الكتلة الشيوعية ، كما ظل محتفظاً برتبة (ادميرال) رغم ان هنكاريا لم تعد تطل على البحر لأن يوغسلافيا انسلخت عنها ، وقد اهدى الادميرال هورتي زوج من المنيول الاقزام النادرة الى الملك غازي في احدى المناسبات .

وكان الهنكاريون يفاخرون بكثرة جسورهم ذات المداخل الفخمة المنصوبة على نهر الدانوب الجميل .

وبعد قضاء اسبوع في هنكاريا سافرت الى بلغراد .

بلغراد

وحين دخلت بلغراد وجدتها مدينة صغيرة تشبه مدينة الحلة وليس فيها أي معالم من معالم العواصم الاخرى التي زرتها ، وفيها حديقة صغيرة نصب في وسطها تمثال نصفي للملك بورس ، والمظهر الشرقي واضح على المدينة ورأيت النساء المسلمات يرتدين (الجادر) ويسير الحمالون في الشوارع

واضعين على رؤوسهم الطربوش التركي وهذا اللباس من مخلفات الحكم التركي للبلاد ، وبعد يومين غادرتها الى بلغاريا .

صوفيا

حين وصلت صوفيا وجدتها لا تقل تأخراً عن بلغراد ، والحياة فيها بسيطة اذا ما قورنت بالحياة التي شاهدتها في الدول الغربية ، وبعد يومين غادرتها الى تركية .

اسطنبول

عبرت جسر قلطة الذي يربط آسيا بأوربا ووصلت الى الشرق الحقيقي وهي مدينة اسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية .

وبقيت هناك انتظر الطيارين العراقيين الذين اشرتُ لهم سابقاً حيث كان من المقرر ان يصلوا الى اسطنبول في الأيام الأولى من وصولي اسطنبول غير انهم تأخروا في الاقلاع من لندن وقطعوا المسافة بين لندن واسطنبول بمدة خمسة عشر يوماً حيث اضطروا للتوقف عدة ايام في عدد من المطارات في الطريق ، وكان يقود السرب كابتن بريطاني حيث كانت الوسائل غير ميسرة لقيادة الطيران وتحتاج الى خبرة غير متوفرة آنذاك لدى العراقيين .

وكنت خلال هذه الفترة اخرج لاستطلاع الامكنة السياحية والاثرية واقضي بعض الوقت في مقهى (طوق تليان) وبينما كنت في المقهى ذات يوم التقيت بصديقي عطا امين وكنت اعرفه منذ كان موظفاً في الملحقية العراقية في لندن وتزوج اخت الامير زيد فيما بعد ـ وكان برفقته السيد ناجي شوكت قنصل العراق في تركيا آنذاك ، وكانوا قادمين لاستقبال الطيارين ، وذهبنا معاً في اليوم التالي الى مطار (يشل كوي) وكان في استقبالهم هناك كثير من رجال الدولة الاتراك ، وبعد وصولهم نزلوا في فندق (بيرة بلاس) من الفنادق الفخمة يومها وكان يملكه احد الرعايا السوريين واقيمت بهذه المناسبة حفلة حضرها مصطفى كمال أتاتورك .

الى بغداد

في الوقت الذي قرر فيه الطيارون البقاء عدة ايام في اسطنبول ، قررت السفر الى العراق فركبت القطار الى الموصل و وصلتها بعد يومين ، وكان آمر حاميتها يومئذ العقيد بكر صدقي ، فرحب بي كثيراً وأنزلت في الفندق وبعد يومين من الاستراحة سافرت الى كركوك ومنها الى بغداد .

راجعت وزارة الدفاع يوم وصولي بغداد وكانوا قلقين على تأخري في الطريق وعُينت آمر فصيل البطرية الصحراوية الاولى التي كان آمرها محمد الشهواني .

وقبل الالتحاق بالوظيفة اخذت اجازة لمدة اسبوعين ذهبت فيها الى النجف لزيارة اهلي وأقربائي بعد هذه الغيبة الطويلة ، فاقيمت لي حفلات التكريم والولائم العامرة كوني أول تلميذ من الفرات الاوسط ارسل في البعثة الى لندن وخلال وجودي في النجف أرجعت ٢٠٠ روبية التي كنت استدنتها قبل السفر من الحاج عبد المحسن شلاش ونائب الديوانية ، فأبو ان يأخذوها فتبرعت بها الى مدرسة الغري المدرسة التي علمتني ودرست فيها ولي فيها ذكريات عزيزة .

في بغداد

كان لابد لي من السكن في بغداد لأكون قريباً على مقر عملي ، فاستأجرت غرفة في فندق «كراند پلاس» المطل على دجلة وهو ملك لبيت الباجحي ولم يكن فيه كثير من النزلاء سوى المرحوم نوري العمري وكان يومها حاكماً ويسكن في الغرفة العلوية الصغيرة التي تسمى (كفشكان) . وبجوار غرفتي يسكن المرحوم محمد حبيب العبيدي من اهل الموصل وكان من اعضاء مجلس الاعيان . و سئمت من حياة الفندق واخذت افتش عن نُزل في احد الدور ، فعرفني اصحاب الفندق الذي انزل فيه على عائلة مسيحية لديهم بيت كبير (بيت شفو) ومنهم الموسيقار البير شفو فوجدت فيه غرفة في الطابق الثاني ولكن لم تكن فيه أي وسيلة للتبريد فتركته ، ثم تحرفت على بيت آخر في رأس القرية مؤلف من طابقين ورأيت فيه الغرفة المعدة للإيجار وكانت فيه صورة للملكة فكتوريا واخرى للملك جورج ، وعرفت فيما بعد ان صاحب هذه الدار واسمه (سركيس) من تجار المشروبات الروحية ، وكان مستخدماً عند الانكليز وقد كافأه الانكليز فعينوه حاكماً للكوفة في العقد الثاني من هذا القرن . وعلى الاجمال فلم ترق لي الدار وساكنيها ، فقررت السكنى في معسكر الوشاش في مقرّ البطرية التي عُينتُ فيها ريثما أجدُ لي مكاناً مناسباً .

كان راتبي يومها ٤٠٠ روبية وهو ما يعادل ٣٠ ديناراً فكنت اصرف نصفها على احتياجاتي الشخصية والنصف الآخر على شراء الكتب .

وكنت اقضي أوقات الفراغ بالمطالعة ، ومسامرة الاصدقاء ، ومن اصدقائي في تلك الفترة :

يوسف رجيب ، وعبد القادر اسماعيل ، وعبد الفتاح ابراهيم ، وحسين جميل ، ويونس السبعاوي ، وكنا نلتقي مساءاً بمقهى (ابو علي) التي كانت تقع في الباب الشرقي من مدخل شارع ابي نؤاس ، وكنا نتحلّق حول المرحوم ابراهيم صالح شكر ـ الكاتب المعروف ـ الذي كان يذكي فينا الروح الوطنية والحماس .

وفي مقهى (حسن عجمي) الذي يقع في شارع الرشيد مقابل جامع [illegible] خانه كنت التقي مجموعة اخرى منهم الاستاذ صادق كمونة ، والمرحوم عبد الوهاب مرجان ، والمرحوم سيد احمد كمال الدين ، والشاعر محمد مهدي الجواهري ، ومهدي هاشم وأحياناً كان يأتينا الصحفي المعروف خالد الدرة ، وكنا نأخذ زاوية من المقهى نطالع فيها الصحف والكتب التي نودعها عند (ساقي المقهى) .

وعن طريق صديقي عبد القادر اسماعيل البستاني تعرفت على (الأهالي) وصاحب هذه الفكرة هو عبد الفتاح ابراهيم الذي كان يومها موظفاً في العدلية بصفة (مترجم) وصدرت جريدة الأهالي التي كانت تنشر الأفكار التقدمية خلافاً لما كان يُنشر في الصحف الأخرى ، وكان كتابها الاستاذ محمد حديد الذي كان موظفاً في وزارة المالية يومها ، والمحامي حسين جميل ، وعبد الفتاح ابراهيم ، وعبد القادر اسماعيل وقاسم حسن .

وكان كتاب الأهالي ينشرون مقالاتهم بتواقيع مستعارة لانه كان محظوراً على الموظفين ان يكتبوا في الصحف ولاسيما السياسية .

وكنت أقوم ببعض الترجمات القصيرة تحت توقيع (م . ط) وفي ذلك الوقت عزمت على نشر قصة (الآباء والبنون) للكاتب ترجنيليف التي كنت قد ترجمتها من الروسية في جريدة الأهالي وحين نُشرت

بدايات هذه الترجمة علمت وزارة الدفاع بنشاطي في هذه الجريدة فمنعتني من ممارسة هذا النشاط وبلغني ذلك شفوياً آمر المدفعية أمين العمري .

غير ان صلتي الشخصية لم تنقطع مع جماعة الاهالي فقد كنت ازور الجريدة ظهر كل يوم بعد انتهاء الدوام الرسمي راكباً حصاني وخلفي المراسل وكان الحصان وسيلة النقل الوحيدة يومها لضباط الجيش الخيالة والمدفعية ، وكانت مطبعة الأهالي في دار صغيرة وقديمة تقع خلف متحف الآثار العراقي الاول الذي يقع في رأس الجسر القديم جانب الرصافة .

وكثيراً ما كنت أتناول الغداء سوية في مقر الجريدة مع عبد القادر اسماعيل وقاسم حسن الذي كان محاسباً للجريدة آنذاك ، وكان في ادارة الجريدة لادارتها وقد علق عبد القادر اسماعيل فيه صورة (بسمارك) الالماني مؤسس الوحدة الألمانية حيث كان معجباً به .

زواجي

في عام ١٩٣١ عقدت القران على آنسة من عائلة بغدادية معروفة هي بيت (عسكر افندي) وفي نفس العام توفي أخوها (فاضل أحمد راغب) وكان زميلاً لي في مدرسة العسكرية في بغداد ، فتأجل الزواج الى سنة ١٩٣٢ .

واستأجرت داراً مجاورة لدار الدكتور صائب شوكت في شارع على نهر دجلة سمي فيما بعد بشارع ابي نؤاس ، والدار التي استأجرتها من دُور جميل كبة بمبلغ الف روبية ، وكان يسكنه قبلي مفتش الجيش العام الانكليزي وللدار ملحق واصطبل وحديقة تمتد حتى شارع الكرادة ، وكانت هذه المنطقة خالية من الناس تقريباً لانها بعيدة عن بغداد ولاتجد غير بعض البيوت المتناثرة هنا وهناك كبيت المرحوم محمد المهدي كبة وبيت فاضل الجمالي .

انجبت من زوجتي ثلاثة أطفال أولهما: ابنتي سُهى ولدت سنة ١٩٣٥ وثانيهما: ابنتي آسيا ولدت سنة ١٩٣٧ وقد سميتها باسم المرحومة والدتي (آسي)، و ثالثهما ولدي الدكتور هيثم.

انضمام الچادرجي إلى جماعة الأهالي

في سنة ١٩٣١ حلّ الحزب الوطني نفسه وكان يرأسه جعفر أبو التمن، وفي نفس الفترة استقال كامل الچادرجي عن حزب الاخاء الذي كان يرأسه ياسين الهاشمي وكان الچادرجي عن حزب الاخاء الذي كان يرأسه ياسين الهاشمي وكان الچادرجي سكرتيراً له، فانضم إلى جماعة الاهالي ورحب به الاخوان حيث كان اكبرهم سناً وصاحب مكانة سياسية اكتسبها من ممارسة العمل السياسي مع ياسين الهاشمي وغيره.

جمعية السعي لمكافحة الامية

اقترح عبد الفتاح ابراهيم فكرة تأسيس جمعية لمكافحة الامية في البلاد وتقدمت جماعة الاهالي إلى وزارة الداخلية بطلب تأسيس جمعية تحت اسم «جمعية السعي لمكافحة الامية» فوافقت الوزارة على ذلك في ٢٥ ايلول ١٩٣٣ ، واعلنت جريدة الاهالي ذلك الخبر موضّحة الغرض من تأسيسها وهو السعي

لتكوين رأي عام في صفوف الشعب وفي المجلس التشريعي والدوائر الرسمية والمقامات العليا يرى لزوم مكافحة الامية في هذه البلاد والتي لم تخرج في كثير من نواحيها من دور الهمجية الاولى، وحثّت الجريدة شباب العراق على مؤازرة الجمعية ودعمها بالانضمام إليها والعمل على تحقيق اهدافها، ونشرت الجريدة النظام الاساسي للجمعية الذي كتبه عبد الفتاح ابراهيم وتألف من ١٨ مادة، ومادتين مؤقتتين، وهو اشبه بنظام داخلي لحزب من الاحزاب السياسية منه إلى نظام جمعية لها اغراض اجتماعية، وقد حاولنا ان نجمع تبرعات شهرية للجمعية، وقد عرضتُ الفكرة مرّة على ضباط كنت أدّرسهم في مدرسة المدفعية، وكنت المعلم الاقدم فيها، فأبوا ان يتبرعوا شيئاً خوفاً من ان يعد ذلك نشاطاً سياسياً الذي تحذر منه قيادة الجيش باستثناء أحمد صالح العبدي فقد تبرع بربع دينار من راتبه الشهري مدة من الزمن، وكان عمل العبدي يومها يعتبر مجازفة بمستقبله.

انضمام جعفر أبو التمن

وحتى تستطيع الجمعية تأدية رسالتها على الوجه الاكمل اتجهت الانظار إلى كسب بعض الوجوه البارزة في البلاد للمشاركة في عمل الجمعية، فقامت الجماعة بمفاتحته فوافق بعد ان حلّ الحزب الوطني، واجتمعت الهيئة العامة للجمعية في دار ابي التمن في ٢٥ تشرين الأول ١٩٣٣ ، وانتخبت الهيئة الإدارية التي تكونت من: جعفر أبو التمن، وكامل الچادرجي، والدكتور فاضل الجمالي، وعبد الفتاح ابراهيم، وعلي حيدر سليمان، ونصرت الفارسي.

ثم اجتمعت الهيئة الادارية بعد ذلك فانتخبت جعفر أبو التمن رئيساً للجمعية ونصرت الفارسي سكرتيراً للرئيس وعبد الفتاح ابراهيم سكرتيراً، ومحمد حديد محاسباً.

وبعد اسبوع تقريباً من انضمام جعفر أبو التمن أعلن اعتزاله من العمل السياسي ونشرت جريدة الأهالي نصّ البيان الذي اعلنه أبو التمن في ١٢ رجب ١٣٥٢هـ ـ ١ تشرين الثاني ١٩٣٣ والذي قال فيه:

«اضطررت والأسف يملأ قلبي ان اعتزل السياسة وانا واثق بأن التطورات في نهضات الأمم امثالنا قد علمتنا بانها سوف تضطرنا إلى العودة متى حان الوقت للكفاح».

وكانت باكورة أعمال الجمعية انها اصدرت بياناً مفصلاً في ٢٤ صفحة وُزع في كافة انحاء البلاد، دعت فيه الشعب إلى دعمها ومؤازرتها في مسعاها واشتمل البيان على نُبَذٍ من جهود مماثلة لتركيا وروسيا وايطاليا والمكسيك والصين، كما تطرق البيان إلى تأريخ مكافحة الأمية في البلاد والجهود والمساعي التي بذلت من اجلها وطلب من الحكومة ان تدعم هذا المشروع الاجتماعي الخطير، وكان اعضاء الجمعية يدفعون اشتراكاً شهرياً يتراوح بين الخمسين فلساً والدينار الواحد بعد دفعهم بدل انتساب حوالي ١٥ دينار عراقي.

وبعد ستة أشهر من مباشرتها العمل أصدرت نشرة طالبت فيها الحكومة بتخصيص عشرة آلاف دينار لمشروع المكافحة.

وكانت اجتماعاتها تعقد في دار فاضل الجمالي بصفته مديراً للمعارف، ولما أسس نادي بغداد صار قسماً من اجتماعات الجمعية تعقد فيه.

نادي بغداد

أخذ جماعة الاهالي يمارسون نشاطهم من خلال (جمعية السعي لمكافحة الامية) بالإضافة إلى جريدتهم، ثم اقترح عبد الفتاح ابراهيم تأسيس تنظيم اجتماعي جديد يضم الشباب المثقف وخاصة الشباب الذين اكملوا دراساتهم خارج العراق، وراح جماعة الاهالي يكسبون الشباب ويدعونهم للانضمام إلى جمعيات ومنتديات لتبادل الآراء والافكار، ولما وجدوا التجاوب المطلوب تقدموا بطلب لتأسيس نادي ثقافي فأجيز في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٣ وكان ذلك بعد شهرين فقط من تأسيس (جمعية السعي لمكافحة الأمية)، وسُمي النادي باسم (نادي بغداد) وكانت التسمية تحدياً بالوجود لنادٍ آخر اسمه (نادي العراق) الذي كان يراسه عبد المحسن السعدون وكان يضم الطبقة الحاكمة في العراق.

وفي أول اجتماع لأعضاء النادي تم صباح يوم ٩ آذار ١٩٣٤ أُنتخب اعضاء الهيئة الادارية وهم: عبد الفتاح ابراهيم، ومحمد حديد، والدكتور صبيح وهبي، والدكتور أحمد عزت القيسي، وعوني الخالدي، وهاشم جواد، ويوسف الكيلاني، ثم اجتمعت الهيئة الادارية فانتخبت عبد الفتاح ابراهيم معتمداً للنادي، ويوسف الكيلاني سكرتيراً، وعوني الخالدي محاسباً.

ثم انضم إلى النادي: جعفر أبو التمن، وناجي الأصيل، وكثير من خريجي الجامعة الامريكية في بيروت مثل: كامل الچادرجي، ونصرت الفارسي.

أما أهداف النادي فكانت أهدافاً اجتماعية اصلاحية لاتسمح بتعاطي المشروبات الروحية ولعب القمار على العكس مما كان يجري في نادي العراق.

وكان كثير من أعضاء نادي بغداد من السلك الخارجي، وكنت فيه عنصراً نشيطاً ولكنني لم انتمي إليه بصورة رسمية لانه كان محضوراً على الضباط الانتماء إلى أي جهة عدا النادي العسكري.

وقد استأجرتُ داراً جعلناها مقراً للنادي بمبلغ خمسمائة روبية من دور آل كبه، وهي دار الحاج رشيد كبه في الشارع الذي سُمي فيما بعد بشارع ابي نؤاس.

وكان نشاط النادي ينقل صيفاً إلى شاطىء دجلة حيث نستفيد من الجزيرة التي يكونها طُمى النهر أمام النادي.

وانتقل مقر النادي بعد ذلك إلى محلة الاورفليه في باب الشرقي لبعده عن المدينة وصعوبة المواصلات وعدم تيسّر وسائل النقل الخاصة لدى الأعضاء.

وكان المقر الجديد قرب مسكن محمد حديد وعبد الفتاح ابراهيم، ويقع في زقاق قريب من النهر، يعود إلى عائلة ارمنية، وخال من الحديقة فكنا نستعيض عن الحديقة في الصيف بالجلوس على سطح الدار.

إغلاق نادي بغداد

لقد أُغلق النادي بعد فترة من الزمن على نقله إلى هذه المنطقة، ومن اسباب غلقه أن وفداً سورياً قدم إلى العراق وكان فيهم نجيب الريس الصحفي المعروف وكان في نية النادي إقامة دعوة تكريمية للوفد غير ان بعض أعضاء النادي اصرّوا على تقديم المشروبات الروحية ولما كان هذا يتعارض وأهداف النادي ونظامه الداخلي، اضطرت الهيئة الادارية إلى الاعتذار عن إقامة الحفلة مقابل اصرار أُولئك

الاعضاء على تقديم المشروبات، وعلى اثر ذلك وبعد أيام استدعاني علي حيدر سليمان إلى وزارة الداخلية، وهو من أعضاء النادي وكان يشغل يومها وظيفة معاون مدير الداخلية العام واطلعني على تقرير كتبه أحد أعضاء النادي وهو أمين المميز وقد جاء فيه ان نادي العراق اتخذه بعض الأعضاء ـ ولم يذكر اسماءهم ـ لبثّ الافكار الهدّامة والدعاية ضد النظام القائم وعلى أثر هذه التقرير أصدر رشيد عالي الكيلاني وزير الداخلية قراراً بغلق نادي بغداد، ونقل عبد الفتاح ابراهيم رئيس النادي إلى (عانه) مدرساً بعد أن كان مترجماً في وزارة العدلية.

وعليه فقد أُغلق النادي وأودعنا أثاثه عند أمين المميز، وبعد مرور أشهر على غلقه جاءني المرحوم زكي الخطاب وقال لي: أسسنا نادي انا وفائق السامرائي وخليل كنه وجميل عبد الوهاب وآخرين باسم (نادي الشباب) ونطلب منك الموافقة والتوقيع على استلام اثاث النادي الموجود عند امين المميز باعتبارك كنت أحد الاعضاء المؤسسين ولو ان اسمك لم يظهر لانك عسكري، فوافقت على ذلك، فاستلم الأثاث ونقله إلى نادي الشباب في دار مؤجرة في الاورفليه.

تحذير من مدير الأمن العام

في إحدى الحفلات الرسمية التقيت بمدير الأمن العام علوان حسين فحذرني بأنه تردنا تقارير كثيرة عن نشاطك السياسي، وهذا يؤثر على مستقبلك في الجيش، فاني انبهك إلى ذلك لتخفف وتحد من هذا النشاط.

كامل الچادرجي

هو كامل بن رفعت الچادرجي ولد في ربيع ١٨٩٧ في بغداد بدار والده الكائنة قرب جامع الحيدر خانه بمحلة جديد حسن باشا، وكان والده قد شغل رئاسة بلدية بغداد لمرات عدة، وكان يملك بساتين في قرية الجمجمة التابعة للواء الحلة.

درس في بغداد ثم ارسله والده لدراسة الطب في سويسرا لكنه رجع إلى العراق دون ان يباشر في الدراسة، فدخل مدرسة الحقوق في بغداد وتخرج منها، وكان لايجيد الكتابة في اللغة العربية لأن دراسته الأولية ولغة البيت كانت باللغة التركية السائدة يومذاك، ولأجل تقويته باللغة العربية قراءة وكتابة ذهب إلى مدير الوقف عطا الخطيب وكان عالماً أديباً فطلب منه أن يوجهه إلى السبيل الذي يقوي فيه لغته العربية والكتابة فيها فأرشده الخطيب إلى مطالعة الكتب العربية، واعطاه كتاب النظرات للمنفلوطي وطلب منه أن يقرأه بتمعن ويحاول أن يحفظ مافيه وان يأتيه بخلاصة لكل كتاب يقرأه باللغة العربية، فكان مما قرأه يومها كتب جرجي زيدان وشبلي شميل، ويقول كامل: لقد استفدت من هذه الطريقة فائدة كبيرة، وكان الچادرجي حسن الخط، فسألته ذات يوم: كيف تعلمت الخط؟ ومن هو معلمك؟ فقال: كان خطي رديئاً جداً، وقد كتبت ذات مرة رسالة إلى والدي من سويسرا فساءه ان يرى خطي بتلك الرداءة وكتب لي مؤنباً، ومنذ ذلك الحين اخذت اجوّد خطي حتى بلغ مابلغ من الجودة.

وكان يتلقى دروساً خصوصية في اللغة العربية ونحوها على يد (منير القاضي) مكنته فيما بعد من كتابة المقالات بلغة مقبولة وتحرير بعض الرسائل باسلوب جيد. حتى كان الناس يعتقدون ان المقالات

الافتتاحية التي كانت تنشرها جريدة الاهالي هي للچادرجي بينما كانت في الحقيقة لعبد الفتاح ابراهيم، وعبد القادر اسماعيل، وحسين جميل، واحياناً محمد حديد.

وللچادرجي علاقة وثيقة بياسين الهاشمي وقد عمل معه في وزارة المالية، مسؤولاً عن الشؤون البرلمانية خلال سنتي ٢٦ ـ ١٩٢٧ ، وكان من اعضاء حزب الشعب الذي ألفه الهاشمي المجاز في ٣ كانون الأول ١٩٢٥ ، واستطاع الچادرجي بدعم من الهاشمي الفوز بعضوية البرلمان سنة ١٩٢٧ وهو بعد في الثلاثين من عمره.

وعندما تألف الحزب المعارض الجديد «حزب الاخاء الوطني» انضم كامل إليه وسرعان ما اختاره الهاشمي من بين الشباب عضواً في اللجنة العليا للحزب التي كانت تضم عدداً من اقطاب السياسة وشيوخ العشائر امثال: رشيد عالي الكيلاني، ومحمد رضا الشبيبي، وحكمت سليمان، وعلي جودت الأيوبي وغيرهم.

وعهدت إليه ايضاً ادارة صحيفة «الاخاء الوطني» الناطقة باسم الحزب في فترة الصراع السياسي يومها بين حزب الاخاء ووزارة نوري السعيد الأولى، مستعيناً بالشيخ باقر الشبيبي وروفائيل بطي في تقويم مايكتبه من مقالات.

وفي نفس هذه الفترة الزمنية صدرت (جريدة الأهالي) فلفتت نظره واعجب بها، وراح يتساءل عن الشباب الذين يصدرونها، ويتتبع اخبارهم حتى تعرف بهم، وقد ابدى اعجابه بجريدة الاهالي فكتب كلمة قصيرة في جريدة الحزب مرحباً بصدورها قائلاً «ويبدو من خطة الجريدة وابحاثها انها تعنى عناية كبيرة بشؤون الثقافة وطبقات الشعب فنسأل لجريدة الأهالي النجاح ولاصحابها التوفيق في الخدمة».

وفي سنة ١٩٣١ عُين رشيد عالي الكيلاني أحد أقطاب حزب الاخاء الوطني عُين رئيساً للديوان الملكي فاعترض على تعيينه، ووجه كتاباً إلى رئيس الحزب ياسين الهاشمي يُبدي اعتراضه على هذا التعيين.

وفي سنة ١٩٣٢ جرت انتخابات برلمانية في العراق اجرتها وزارة ناجي شوكت، فرشح ياسين الهاشمي عدداً من أعضاء حزبه «حزب الاخاء الوطني» ولم يرشح معتمد الحزب كامل الجادرجي، إلى هذه الانتخابات، فغضب اشد الغضب وقدم استقالته من الحزب، وانقطع عن الاتصال بياسين الهاشمي وجماعته، وتقرب إلى جماعة الأهالي وبدأ ينشط بشكل ملحوظ، واتخذ من داره المجاورة لوزارة الدفاع مقراً لنشاطه السياسي.

وكنت أتردد على داره في هذه الفترة ونتحدث في مواضيع سياسية مختلفة، الامر الذي انشأ فكرة لدى عبد الفتاح ابراهيم في ايجاد جمعية سرية تمارس العمل السياسي ومفاتحة الچادرجي بالانضمام لها وهي الجمعية الشعبية وسأخصها بحديث مستقل.

وكان للچادرجي مجلس يعقد يوم الجمعة، وكان يحضره عدد كبير من السياسيين والمسؤولين في الحكم وغيرهم، وكانت تدور فيه الأحاديث السياسية والاقتصادية كما كانت تدور فيه احياناً بعض الطرائف والنوادر، ومن تلك النوادر التي دارت في هذا المجلس والتي قصها علينا الچادرجي، قال:

حكى لنا حكمت سليمان في جمع بحضر دارنا قصة طريفة عن الشيخ أحمد الشيخ داود، قال: كنت في العهد العثماني مديراً للمعارف، وحضرت ذات يوم في مجلس الوالي العثماني في أحد ايام الجُمع إذ دخل علينا الشيخ أحمد الداود لابساً بدلة خضراء وعمة خضراء ومطوقاً بدلته بقفطان اخضر وحذاء أخضر، وصبغ شواربه باللون الأخضر، وخضب لحيته باللون الأخضر وبيده عصا مصبوغة بالأخضر، وحين دخل المجلس لفت إليه الأنظار وبقي الوالي مندهشا من هذا الزي الغريب الذي لم يعتده من الشيخ أحمد، فبادر الشيخ أحمد الوالي قائلاً له: رأيت في المنام جدي رسول الله فأمرني أن ارتدي هذا الزي الأخضر واخضب لحيتي باللون الأخضر وآتي إلى مقامكم لأطلب منكم أن أكون متولياً لأوقاف إحدى الخواتين التي تقع بين الاكمخانة والميدان، ومأكثر أوقاف الخواتين في بغداد آنذاك. فأمر الوالي بذلك وجعله متولياً لها.

ومما حدثنا به كامل الچادرجي عن قضية منارة الكفل قال:

إن قبر «ذي الكفل» الموجود حالياً بين الحلة والنجف هو قبر أحد حكماء بني اسرائيل، وقد شيد بجانبه جامع كبير وفي وسطه منارة وبمرور الزمن ضم اليهود صحن الجامع إلى قبر ذي الكفل وبنوا غرفاً عديدة في ذلك الصحن، وكان اليهود يأتونه في أحد اعيادهم ويسكنون في تلك الغرف فيقضون فيها أياماً وكان يصادف في ذلك الوقت عيد الربيع وكثيراً ماكان يحدث نزاع بين المسلمين واليهود حول سكنى هذه الغرف في هذا العيد، وتطور النزاع حول عائدية هذا الجامع فالمسلمين يدعون انه لهم ويستدلون بذلك بالمنارة الموجودة في وسطه، واليهود يدعون انه لهم بدليل وجود القبر في وسطه، حتى وصل النزاع إلى الباب العالي في اسطنبول، فأرسلت لجنة للتحري والتحقيق في عائدية ذلك الجامع وأن يصوروا تلك المنطقة بالصور الفوتوغرافية وتُرسل الصورة إلى الباب العالي، ولما وصلت اللجنة لتصوير الجامع، وجدت إن الجهات المسؤولة في بغداد بجانب اليهود فصاروا في وضع محرج فاقترح عليهم الشيخ أحمد الداود حلاً ينقذهم من هذه الورطة، فقال لهم لاعليكم وهناك طريقة سهلة للتخلص وهو ان يقف المصور فوق المنارة ويصور المنطقة وعندها لاتظهر المنارة فأخذ برأيه وصُور الجامع فلم تظهر المنارة، وظهر القبر الذي اثبت عائدية الجامع لليهود.

وهناك حكاية اخرى ذكرها لنا حكمت سليمان قال:

جاء وفد من النجف من آل الكليدار ومعهم مبلغ خمسة آلاف ليرة ذهب لتقدم إلى الوالي هدية مقابل توسطه لدى الباب العالي لكي يُعيّن السيد حسن بن السيد جواد كليداراً لمرقد الإمام علي، وأخبر (حكمت) الوالي بذلك وقال له: خذها منهم وابنِ مدرسة لأن الموافقة آتية بتعيينه كليداراً قبل أن يصلوا بغداد، فأخذ الوالي المبلغ وبنيت به المدرسة المأمونية في الميدان ببغداد.

والشيء بالشيء يذكر، فان الشيخ أحمد الداود عندما عاد من هنجام إلى بغداد بعد نفيه، كان يتوقع أن يجد الشعب في استقباله في محطة بغداد، فلم يجد أحداً غير ولديه سلمان وأخاه، وعندما جاءا للسلام عليه ومصافحته قال لهما «أهلاً بالشعب».

الجمعية الشعبية

مرت الإشارة قبل قليل إلى ذكر هذه (الجمعية الشعبية) التي لقيت تأييداً وحماساً لدى عدد من الاخوان الذين اتصل بهم عبد الفتاح ابراهيم ودعاهم للعمل السري، وقد فاتحنا المرحوم جعفر ابو التمن لتولي رئاسة الجمعية فوافق ورحب بالفكرة، وصار عبد الفتاح ابراهيم سكرتيراً لها، وضمت في عضويتها كامل الجادرچي، ومحمد حديد، وعبد القادر اسماعيل.

وكانت اهدافها اصلاحية عامة مثل: مكافحة الأمية، وتقليص الفروق الاقتصادية في المجتمع، ومحاربة الملكية الواسعة والاقطاع، ونشر الأفكار الديمقراطية مثل حرية الرأي والعقيدة ومحاربة الاستعمار وأعوانه.

وكان الانتماء لها على درجتين: يتصل اعضاء الدرجة الأولى بالرئيس مباشرة ويقسمون يمين الولاء للجمعية أمامه وهو:

«أقسم بشرفي وجميع مقدساتي أن أكون مخلصاً لأهداف الجمعية ومبادئها».

أما أعضاء الدرجة الثانية: فانهم يُقسمون يمين الولاء امام العضو الذي رشحهم من الدرجة الاولى.

ويكاد يكون تنظيم الجمعية على شكل خلايا سرية لايعرف العضو فيها غير الشخص المسؤول عنه.

وفي صيف ١٩٣٣ طلب مني عبد الفتاح ابراهيم أن اذهب إلى بيت جعفر أبو التمن لأداء القسم الحزبي، فذهبت إلى داره في محلة الدهانة وكان معي صادق كمونة لنقسم يمين الولاء الحزبي، فاستقبلنا بالترحاب، واقسمنا اليمين عنده.

وصادف في ذلك اليوم اضراب مقاطعة الكهرباء في بغداد، وكان أبو التمن ممن أيّد المقاطعة ولم يستعمل الكهرباء في بيته، وكان يستعمل مروحة تعمل بالنفط وكنا جلوس عنده وهي تعمل فينبعث الدخان الأسود منها أكثر مما تنفث به من الهواء.

وفي تلك الفترة اصدر عبد الفتاح ابراهيم كتابه الموسوم «على طريق الهند[1]» وقد صدر باسم المحامي جميل عبد الوهاب لأن العمل السياسي محذور على الموظفين، وقد لقي الكتاب رواجاً كبيراً فأُعيد طبعه ثانية واضيفت له معلومات جديدة وصدر في هذه المرة باسم مؤلفه الحقيقي عبد الفتاح ابراهيم الذي اتبعه في نفس الوقت بكتاب آخر اسمه «مطالعات في الشعبية» وفيه افكار استنبطها من بعض المذاهب الاشتراكية، غير ان هذه الافكار لم تكن واضحة ولم يكن بالإمكان ان يبني عليها مذهباً اقتصادياً أو سياسياً.

تشكيل الحزب الشيوعي العراقي

ذهب إلى موسكو شاب عراقي متحمس بعد سماعه بالثورة الروسية وهو عاصم فليح، وحين عاد إلى بغداد أسس أول حزب شيوعي في بغداد وكان يقوم بتوزيع المناشير السرية المنددة بالاستعمار والمتناولة للاوضاع السياسية آنذاك.

---

(١) طبع هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٣٥ بغداد.

وقد اقتنى الحزب مطبعة روتيو ووضعوها عند طباخ الملك علي الذي انتمى إلى الحزب فكانت المطبعة في حصن حصين بعيد عن الشبهات وكانت دار الملك علي تطل على دجلة بجانب الكرخ قرب دار الإذاعة اليوم.

ويقال ان الطباخ حاول ان ينظم عبد الإله في الحزب الشيوعي! وكان الشيوعيون يستخدمون الزوارق الصغيرة (البلم) في توزيع منشوراتهم بدءاً باستلامها من المطبعة في دار الملك علي، وذلك تجنباً للملاحقة، لأن السير في الشوارع يعرضهم إلى ملاحقة الشرطة.

وتعرض (عاصم فليح) إلى الضرب المبرح والاهانات مرة أمام وزارة العدلية وبسبب ذلك ترك العمل في الحزب الشيوعي، وقامت الحكومة بمراقبة نشاط الشيوعيين وكشفهم، وكان المكلّف بتعقيبهم ومضايقتهم هو معاون الشرطة عبد الرزاق العسكري الذي يمت بصلة رحم إلى جعفر العسكري.

وذات يوم استطاعت الشرطة إلقاء القبض على حسن عباس الكرباسي وهو يحاول لصق منشور للشيوعيين على جدار دار الدكتور صائب شوكت في شارع أبي نؤاس، فحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

وظلت المطبعة بعيدة عن أعين الرقباء ومستمرة في طبع جريدة الحزب «القاعدة» وقد اشتدت الرقابة على مهدي هاشم وهو من اصدقائي الذين كنت أمدّهم بالمساعدة، وكان مهدي هاشم يستخدم صديقاً له اسمه حميد كاشف الغطاء ابن ابو البساتين وهو معلم متقاعد، وكان واجبه أن يُوصل مايُراد طبعه إلى الطباخ، فألقي القبض عليه وأمام التهديد والاغراء بتعيينه مفوضاً في الشرطة، وكل الذي طلبوه منه هو أن يأتي إليهم بكل مايرسله مهدي هاشم للطبع ليستنسخوه ثم يأخذه بعد ذلك إلى الطباخ ليكون مستمسكاً بيد الشرطة عند المحاكمة، وهذا ماقام به الشخص المذكور حيث ظهر مقال في القاعدة وصورة منه عند الشرطة، وعلى أثر ذلك كبست المطبعة وأُلقي القبض على الطباخ الذي انكر صلته بهم وادّعى عدم علمه بالموضوع ثم القي القبض ايضاً على مهدي هاشم وحكم عليه بالسجن لمدة خمسة سنوات. ونفيه خارج العراق إلى إيران لانه أصله من قفقاسية الايرانية، ولو ان ايران لم تعترف به، وزقد عُين حميد كاشف الغطاء مفوضاً بنجمة واحدة. واستأجروا له داراً ملاصقة لداري ليسهل عليه مراقبتي أيضاً، حيث كان مهدي هاشم وعدد من زملائه يترددون عليَّ كثيراً وكنت أمدهم بالنقود، وكان الشرطة يتوهمون ان لي صلة حزبية معهم، وعلى اثر ذلك اختفى النشاط الشيوعي فترة من الزمن، وقد جاء بعد هذه الحادثة عبد الحميد بعد ان طرد من روسيا وحاول ان يعمل له كتلة شيوعية غير ان الشرطة العراقية استطاعت استخدامه ضد الشيوعيين كما فتح مكتبة لبيع الكتب في شارع الاكمخانه، وأخيراً لما انتُضح أمره أخذ ينشر علناً منشورات ضد الشيوعيين.

وظل الحزب الشيوعي عديم النشاط والفاعلية حتى مجيء (يوسف سلمان ـ فهد) من موسكو وقد تخرج من مدرسة اللغات الشرقية التي تخرج القادة للاحزاب الشيوعية، فبعث في الحزب الحياة من جديد، واسسوا مطبعة، واصدروا جريدة سرية باسم «الشرارة» على غرار النشرة الذي كان يصدرها (لينين) وهي (الاسكرا) أي (الشرارة).

وقام (فهد) بنشاط مدروس وموجّه لنشر المبادىء الشيوعية والاتصال بالطبقات العمالية والفلاحين وبعض المثقفين وبآلاف المعلمين المنتشرين في القرى والأرياف.

مقاطعة شركة الكهرباء

منحت الحكومة العثمانية محمود الشابندر امتيازاً لتنوير بغداد بالكهرباء وتأسيس مصلحة للترامواي لنقل الركاب، كان ذلك بتاريخ ١٢ آذار ١٩١٢ ، وقد شكّل محمود الشابندر شركة لهذا الغرض وصادقت وزارة التجارة العثمانية على امتيازها في سنة ١٩١٤ ولكن إعلان الحرب العالمية الاولى في ذلك الوقت عطّل تنفيذ القرار .

ولما تشكل الحكم الوطني في العراق طالب صاحب الامتياز من الحكومة العراقية إقرار الامتياز، فوافق مجلس الوزراء في ٢٧ تشرين الأول ١٩٢١ على اعتبار الامتياز الممنوح للشركة قانونياً. وطلب مجلس الوزراء من وزارة التجارة درس المسائل واقتراح تعديل الامتياز المذكور بصورة تتفق مع المصلحة العامة.

وعلى هذا الاساس أُعيد النظر في امتياز محمود الشابندر ودامت المفاوضات والمشاورات حوالي سبع سنوات، ولكن الطرفين لم يتفقا على صيغة معينة، وعلى هذا تقرر إحالة الموضوع إلى وزارة المستعمرات البريطانية لتقول كلمتها الاخيرة.

وقد نظمت وزارة المستعمرات مقاولة اخيرة ولما عُرضت على مجلس الوزراء العراقي أصابها بعض التعديل، وكان أهم ماجاء فيها انها تستمر لمدة ٥٠ سنة من تاريخ صدور القانون الخاص بها، وعند انقضاء مدة الامتياز تصبح جميع المؤسسات والماكنات مُلكاً للحكومة بلا بدل، كما نصّت على شراء الشركة الجديدة لمشروع الكهرباء الذي أقامته السلطات البريطانية في بغداد بعد الاحتلال بمبلغ ٢٥ مليون باون، كما حددت أجور الوحدة الكهربائية بـ ٢٨ فلساً كحد أعلى وأن تكون وزارة الاشغال والمواصلات العراقية شريكة مع الشركة في الارباح، ووقعت هذه الاتفاقية من قبل الحكومة العراقية والشركة في ٢ حزيران ١٩٢٨ وعرضتها على المجلس النيابي في ٢٠ ايلول ١٩٢٨ لمناقشتها، وقد اعترض جعفر أبو التمن مع من اعترض من النوّاب على استمرار الاتفاقية لمدة خمسين سنة من سنة ١٩٢٨ ، وطالب باستمرارها للمدة المذكورة من سنة ١٩١٢ .

وكذلك اعترض على تحديد الحد الأعلى بـ ٢٨ فلساً وطالب بتوزيع الامتياز القديم على النواب للمقارنة بينه وبين الامتياز الجديد، وقد أيّده في ذلك نائب بغداد محمود رامز، وردَّ عليه عبد المحسن شلاش وزير الاشغال والمواصلات بأن جعل مدة الامتياز من تاريخ عقده هي تحت البحث ، أما الاجور فانها حدّ أعلى للسعر وهو احتياط نظراً لما يحتمل ان يصيب الشركة من خسارة اثناء المدة وليس المفروض أن تتقاضى الاسعار في الحد الاعلى كما اعتبر ذلك للترغيب في ادخال رؤوس الأموال إلى الشركة، وأوضح الوزير ان للحكومة الحق خلال خمس سنين ان تعيد النظر في هذه الأمور.

وقد وضع جعفر أبو التمن امام مجلس النواب اقتراحين:

أولها: ان لايزيد سعر الواحدة المستهلكة عن ٢٠ فلساً للاستهلاك الشخصي ولايزيد عن نصف ذلك للاستهلاك الصناعي والبلديات والجوامع والدواوين الحكومية والمدارس والمستشفيات.

وثانيهما: تخصيص الارباح لامانة العاصمة بدلاً من الحكومة.

ولكن اقتراحاته لم تلقى الموافقة من المجلس، ولما عُرضت لائحة الامتياز للتصويت وافق عليها ٥٨ نائباً، وخالفها ٩ نواب بينهم جعفر أبو التمن، وتغيب ٢٠ نائباً عن الجلسة.

باع محمود الشابندر امتيازه إلى شركة انكليزية بلجيكية، وكان أول عمل قامت به الشركة الجديدة هو التخلص من مشروع «الترامواي» باعتباره يستنزف جزءاً كبيراً من ارباحها التي تحصل عليها من التنوير الكهربائي فطلبت من الوزارة العراقية الموافقة على رفع مشروع الترامواي وادّعت ان شوارع بغداد ضيقة لاتسمح بمد خطوط السكك عليها. فوافقت وزارة نوري السعيد الأولى على طلب الشركة، وعرضت التعديل على المجلس النيابي في ١٩٣١ فوافق على هذا التعديل بالرغم من ان اللجنة الاقتصادية في المجلس رفعت تقريراً طالبت فيه تخفيض الحدّ الاعلى لاجور الوحدة الكهربائية في مقابل رفع مشروع الترامواي الذي يتطلب مصاريف باهضة، وعلى هذا بقيت الشركة مقتصرة على التنوير فقط وصارت تستوفي ٢٨ فلساً عن كل وحدة كهربائية، وكان هذا السعر مرتفعاً بالنسبة لمستوى المعيشة ومعدل دخل الفرد في ذلك الوقت وعليه فقد شعر المواطنون في بغداد بارتفاع هذه الاجور خلال الازمة الاقتصادية التي تعرض لها العالم سنة (٢٩ ـ ١٩٣٠) واستمرت لسنوات عديدة وتعرض لها العراق شأنه شأن بقية اقطار العالم، فسادت البطالة وهبطت اسعار المحاصيل الزراعية هبوطاً كبيراً، وارتبك الوضع المالي في البلاد الأمر الذي اضطر الحكومات المتعاقبة إلى تنزيل بعض الرسوم وتخفيض الكثير من الضرائب والاجور لتخفيف آثار تلك الازمة.

انتشرت الدعوة لتخفيض اسعار الوحدة الكهربائية اسوة ببقية البضائع بناءً على مايعانيه المواطنون من ضيق بسبب الازمة الاقتصادية، فلاقت هذه الدعوة ترحيباً كبيراً وتجاوباً حاراً بين الاوساط العمالية التي شعرت اكثر من غيرها بوطأة هذه الاسعار في ظل الازمة الاقتصادية القائمة، فسارعت جمعيات العمال الى تبني الدعوة سيما وان الاحزاب السياسية لم تكن بوضع يمكنها من اخذ زمام المبادرة فالحزب الوطني قد اصابه الضعف بسبب اعتزال معتمده جعفر أبو التمن، وحزب الاخاء الوطني قد اصابه التصدع بسبب التناقض الذي وقع بين الشعارات التي رفعها حينما تآخى مع الحزب الوطني بتعديل معاهدة ١٩٣٠ وحل البرلمان الذي ابرمها، وخلو منهاج الوزارة التي تألفت في ١٠ آذار ١٩٣٣ من هذه الشعارات مما آثار انقسامات بين صفوفه، أما حزب العهد فهو حزب ضم عدداً من محترفي السياسة فلم يكن بوضع يسمح له ان يتبنّى هذه الدعوة.

اخذت نقابات العمال تعقد الاجتماعات لجمعيات العمال لدراسة هذه القضية مطالبة الشركة بتخفيض اجور الوحدة الكهربائية وقد استفادت النقابة من المادة (٤٦) من الامتياز الممنوح لشركة الكهرباء والذي يخوّل الحكومة المطالبة بتعديل الحد الأعلى من الاسعار بعد اليوم العاشر من تشرين الأول ١٩٣٣ أي بعد مرور خمس سنوات وكانت نتيجة هذه الاجتماعات ان وجّه محمد صالح القزاز المعتمد العام لنقابة اتحاد العمال كتاباً إلى وزير الاقتصاد والمواصلات، ووزير الداخلية، ومدير شركة التنوير والكهرباء في بغداد، في ٣ تشرين الأول ١٩٣٣ بيّن فيه ان شركة التنوير الكهربائي لاتزال تتقاضى الاجور الباهضة التي لاتتناسب وحالة الشعب الراهنة بالرغم من كثرة الطلبات التي قدمت اليها، وطالب الكتاب من وزير الاقتصاد والمواصلات بذل الجهود لإرغام الشركة على تنزيل اثمان الوحدات الكهربائية التي يتقاضاها، وإعلام النقابة بما توصلت إليه الوزارة في هذا السبيل لكي تقوم النقابة وبقية جمعيات العمال والاهلين، ان لم تنزل الشركة عند رغبتهم، إلى تكوين رأي عام لمقاطعتها وارغامها على الاجابة لطلب الاهلين وتنزيل ماتتقاضاه إلى درجة تتفق وقلة الكسب الحالي.

وفي ١١ تشرين الأول ١٩٣٣ دعت نقابة اتحاد العمال ممثلي الجمعيات والأصناف وأرباب المهن لعقد مؤتمر عام وتأليف مجلس النقابة الأعلى وتحديد موعد للقيام لتكوين رأي عام لمقاطعة الكهرباء في بغداد إن لم تخفض الشركة السعر إلى درجة يرتاح لها الأهلون ، وقد أسفر هذا المؤتمر عن انتخاب مجلس للنقابة برئاسة محمد صالح القزاز كمعتمد عام ، وأخذ المجلس الأعلى يواصل اجتماعاته ، فقرر في ٣١ تشرين الأول ١٩٣٣ القيام ببث الدعاية لتكوين رأي عام للمقاطعة ، ووضع هذا القرار موضع التنفيذ فشرع يدعو مختاري محلات بغداد وأرباب المصالح لتأليف لجان فرعية تقوم بالدعاية لهذه الفكرة ، ووزع المجلس في ٤ تشرين الثاني ١٩٣٣ منشورات تحث الأهلين على الاستعداد والتهيؤ للمقاطعة ، وبدأ أصحاب المقاهي والفنادق والمطاعم بشراء المصابيح النفطية واللوكسات والفوانيس استعداداً لتنفيذ هذه الفكرة .

وأسهمت الصحافة في ترويج فكرة المقاطعة ومساندتها وفي مقدمتها صحيفة الأهالي التي كانت تعير قضايا العمال أهمية كبيرة ومما كتبته في هذه الخصوص :

«لقد ظهرت النتائج السيئة لإعطاء المشاريع ذات النفع العام إلى الشركات ، ومثال ذلك شركة الكهرباء الاجنبية التي تقوم بتنوير بغداد ، فقد كثر الإستياء من فداحة ما تستوفيه من أجور على وحدات الكهرباء ، ولم تفعل الحكومة شيئاً يُؤدي إلى تحاشي هذه الشركة الأزمة الاقتصادية واعتبرت الجريدة تهاون الحكومة هو الذي دفع الشركة إلى عدم الاهتمام لمطاليب جمعيات العمال .

وكذلك كتبت جريدة الإستقلال تحث الناس على مقاطعة الكهرباء حتىٰ تستجيب الشركة إلى طلبات الشعب ، واعتبرت المقاطعة واجباً وطنياً ومشروعاً لأنه يثأر بذلك إلى كرامته ومصلحته من شركة الكهرباء التي امتصّت دماءه وهزأت منه ، ودعت الشعب لتحديد موعد بدء المقاطعة .

أظهر الشعب العراقي استجابة كبيرة لهذه الدعوة ، وكان في المقدمة جعفر أبو التمن فقد قاطع الكهرباء قبل أن تعلن النقابة المقاطعة ، فأرسل كتاباً إلى مدير شركة التنوير والكهرباء لمدينة بغداد أعلن فيه استياءه من إصرار الشركة على عدم النزول عند رغبة المستهلكين للقوة الكهربائية وإنه سيقطع الكهرباء في داره ومحله التجاري إلى أن تستجيب الشركة لمطاليب الشعب ، وصادف أن زرت جعفر أو التمن في هذه الفترة مع صادق كمونة وكان قد أضرب عن استعمال الكهرباء وكان يستعمل مروحة نفطية لمقاومة حرّ الصيف القائض وقد أشرت لهذا الحدث من قبل ، وكان لعمل جعفر أبو التمن هذا أثر كبير فقد اقتدى به كثير من المواطنين لما له من منزلة اجتماعية في نفوسهم وما يعتقدونه من إخلاصه وكذلك تلقت الصحف برقيات عديدة يذكر فيها موقعوها أنهم قرروا مقاطعة شركة الكهرباء الأجنبية اقتداءاً بجعفر أبو التمن وتنفيذاً لقرارات المجلس الأعلىٰ لنقابة اتحاد العمال .

استاءت الشركة من كتاب جعفر أبو التمن فردّت عليه بكتاب خالٍ من المجاملة والذوق ، قالت فيه : إن الشركة تأسف على قيامكم بهذا العمل الذي أفسحتم به مجال المقاطعة وما كانت تظن بكم أن تقوموا بمثل هذا العمل .

ونتيجة للضغط الشعبي الشديد واستعدادت أهالي بغداد للمقاطعة حاولت الشركة إجراء تخفيضات طفيفة حسب الصلاحيات المخوّلة لها ، ولكن نقابة اتحاد العمال رفضت هذه التخفيضات لأنها غير مجدية وطلبت حضور مدير الشركة العام إلىٰ بغداد من لندن ليشرف علىٰ سير المفاوضات .

أرسلت الشركة إلى مديرها العام تطلب حضوره إلى بغداد ، فجاء المدير العام ولكنه لم يظهر استعداد الشركة لتخفيض أجور الكهرباء وظهر عدم جدّيته في المفاوضة إذ أعلنت الشركة أنها تأسف لعدم استطاعتها في وضعيتها الحالية إجراء أيّ تخفيض في أسعار القوة الكهربائية فأدّى ذلك إلى ضغط شعبي على المجلس الأعلىٰ للنقابة بتحديد موعد البدء بالمقاطعة .

حاولت حكومة جميل المدفعي الأولىٰ معالجة هذه القضية فأصدرت بياناً تضمن كشفاً بأجور الكهرباء في البلدان الأخرىٰ المجاورة بمستوىٰ أعلى من مستوىٰ الأجور في بغداد وأشارت إلى أن الحكومة ما تزال تفاوض الشركة حول الأسعار وتأمل أن تتوصل إلى اتفاق مرضٍ في القريب العاجل وهاجمت الحكومة في بيانها والمطالبين بتخفيض الأجور ووصفتهم بأنهم أشخاص أصحاب مصالح شخصية ومدفوعين بغايات خاصة ، وحذرت الأهلين من الإنخداع بهم والسير ورائهم وهددت بأنها ستتخذ جميع الإجراءات والتدابير لحفظ النظام .

أحدث هذا البيان ردود فعل كبيرة لدى الأهلين وقوبل باستياء شديد في الأوساط التي دعت للمقاطعة ، فأصدر المجلس الأعلىٰ لنقابة اتحاد العمال بياناً أعلن فيه أن الأسعار التي نشرتها الحكومة غير صحيحة ومختلقة ، وإن المؤسسات التي تتولىٰ التنوير في البلدان الأخرى هي شركات أهلية في حين أن شركة الكهرباء في بغداد أجنبية ، وأن بيان الحكومة هو دفاع عن شركة الكهرباء بينما يقتضي واجب الحكومة أن تؤازر الشعب وتطالب بحقه أو أن تكون محايدة علىٰ الأقل ، وأن الأسعار التي نشرتها الحكومة هي أجور تستوفىٰ علىٰ أساس وجود «الترامواي» بجانب الكهرباء بينما شركة كهرباء بغداد محفرة منه .

أمام هذا الوضع حدد المجلس الأعلىٰ لنقابة اتحاد العمال يوم ٥ كانون الأول ١٩٣٣ موعداً لبدء المقاطعة في بيان أصدره وأشار فيه إلىٰ التطورات التي صاحبت القضية ومعاناة الأهالي من ارتفاع الأسعار التي تستوفيها الشركة وإصرارها وتعنتها أمام المحاولات التي بذلت لتخفيضها بالرغم من أن الأسعار في البلدان المجاورة بل والألوية المجاورة أقل منها في بغداد ، وبالرغم من أن الحكومة تساهلت مع الشركة بحيث أعفتها من إنشاء الترامواي لما يسبب لها من أضرار . وفي الختام خاطب البيان الأهالي بقوله :

«لقد تمتم منذ بدء الدعوة إلى المقاطعة بما يُسجّل لكم بمداد الفخر والإعجاب والآن نأمل منكم أن تكونوا كالبنيان المرصوص في العاصمة حيث الأمة لا تستطيع أن تسترجع حقاً اغتصبه الأجنبي إلاّ بالتآزر والتضامن ، وهؤلاء إخواننا السوريون لما وجدوا أنفسهم مغبونين من شركة الكهرباء لم يروا سلاحاً أقوى من المقاطعة فثابروا عليها إلى أن نزلت الشركة عند مطاليبهم» .

وحدد المجلس مطاليبه بتخفيض سعر الوحدة الكهربائية بمبلغ لا يزيد عن ١٤ فلساً وإعفاء الأهلين في بغداد من أجرة مقياس الكهرباء العائد للشركة . وأن توضع التأمينات التي تأخذها الشركة من الأهلين في أخذ المصارف وتصرف فوائدها على الجمعيات الخيرية كافة .

وبعد نشر هذا البيان تلقى المجلس التأييد المطلق من أرباب المهن والأصناف وبعض النوادي والمؤسسات والشخصيات السياسية والنواب ، وعمت المقاطعة الفنادق والمطاعم والمقاهي .

حاولت الشركة أن تثني عزمهم عن المقاطعة بإغرائهم بإجراء بعض التنزيلات الخاصة بهم فقط .

أما الأحزاب السياسية فقد قاطع الحزب الوطني ونشر بياناً في جريدة الثبات أعلن فيه رأيه في ضرورة المقاطعة وأوضح أن رأيه لا يختلف عن رأي الجمهور المستمر بالشكوى من فداحة الأجور واستبداد الشركة الأجنبية بمقدرات المستهلكين وأعلن الحزب استنكاره لتهاون المسؤولين وتجاهلهم في معالجة الموضوع ، وكذلك قاطع حزب الإخاء الوطني ولكن حزب العهد لم يؤيد عملية المقاطعة .

ووقفت أكثرية الصحف البغدادية إلى جانب المقاطعة واستمرت في حثّ الأهلين على القيام بها ، وكانت جريدة الأهالي في طليعة الجرائد حيث واكبت عملية المقاطعة يوماً بيوم ، وكانت تؤرخها في صدر صفحتها الأولى بقولها : المقاطعة في يومها الأول . . . المقاطعة في يومها الثاني . . وهكذا في جميع أيام المقاطعة .

وبعد أن استفحل الأمر واشتدّت المقاطعة حاولت الحكومة أن تتدخل بعد أن وقفت موقف المتفرج فأصدرت في ٧ كانون الأول ١٩٣٣ بياناً أعلنت فيه اتفاقها مع الشركة على تخفيض الأجور من ٢٨ فلساً إلى ٢٦ فلساً كما سعّرت الوحدة الكهربائية بـ ١٢ فلساً بالنسبة للمحلات التي يزيد استهلاكها عن ٥٠ وحدة شهرياً ، ولكن مجلس النقابة استهان بهذا التخفيض ودعا الأهالي إلى الإستمرار في المقاطعة باعتبار أنه تخفيض لا يُعتدّ به لأن البيوت والمحلات التجارية الصغيرة لا تنتفع من هذا التخفيض حيث لا تستهلك وحدات كثيرة .

ومضىٰ مجلس النقابة يواصل مساعيه لحثّ الأهلين علىٰ المقاطعة فاستجابوا إليها استجابة تامة فخلت مقاهي بغداد وحوانيتها وفنادقها وعدد كبير من دورها من المصابيح الكهربائية ووضعت مكانها المصابيح النفطية واللوكسات والشموع .

استاءت الحكومة من هذه العملية وموقف الصحافة منها فاستدعىٰ ملاحظ المطبوعات في ٧ كانون الأول إلى مكتبهِ الصحفيين وأنذرهم وهددهم بأنه بعد أن أذاعت الحكومة تخفيض أثمان الوحدات الكهربائية فإنها تعتبر قضية الكهرباء انتهت وسوف تعطل أية صحيفة تكتب حول المقاطعة باعتبار ذلك إخلالاً في الأمن .

لقد اعتبرت جريدة الأهالي هذا الإنذار إهانة للصحافة واعترضت علىٰ موقف الحكومة الذي يعتبر دعوة الأهلين إلىٰ مقاطعة شركة الكهرباء الأجنبية إخلالاً بالأمن العام . ولا تعتبر تعنّت الشركة وعدم اهتمامها بطلبات الأهلين إجحافاً بحق المستهلكين الكثيرين الذين اتخذوا جميع السبل لأن تخفض الشركة تِيم الوحدات إلى حدٍ منصف فلم تفعل .

حاولت الحكومة أن تقاوم عملية المقاطعة هذه فأوعزت إلى مديرية الأوقاف العامة أن تزود المساجد والتكايا بالمصابيح الكهربائية بدلاً من اللوكسات والمصابيح الزيتية كما أوعزت إلى أمانة العاصمة إلىٰ تنوير بعض الشوارع الجديدة التي لم تكن مُنارة من قبل تعويضاً لما أصاب الشركة من خسائر بسبب المقاطعة .

وقد لاقت إجراءات الحكومة هذه مقاومة عنيفة ، فقد احتج الخطباء في المساجد والجوامع ، ونظّم المصلّون مضابط تطالب بعدم استعمال الكهرباء في المساجد .

لم تجدِ نفعاً إجراءات الحكومة ، واستمرت المقاطعة فلجأت الحكومة إلى استعمال العنف فطلب وزير الداخلية (صائب شوكت) من متصرف بغداد القبض على محمد صالح القزاز ، وفي ٢٥ كانون الأول ١٩٣٣ ألقي القبض عليه وعلى زملائه :

«حسون أبو الجبن ، وعبدالله البدري ، ومحمود السراجي ، وتوفيق حسن الصفو ، ومكي الأشتري ، وياس الحلاق» .

وأغلقت النقابة وأحالتهم إلى محكمة الجزاء فحكم عليهم بوضعهم تحت الرقابة لمدة ستة أشهر فأرسلوا تحت الحراسة المشددة إلى السليمانية ، ومكثوا هناك ثلاثة أشهر ثم صدر قرار محكمة التمييز بتخفيض العقوبة إلى ثلاثة أشهر ، وسُمح لهم باختيار المكان الذي يريدونه عدا المكان الذي ترىٰ الحكومة محذوراً من بقائهم فيه فاختاروا بعقوبة وبقوا فيها إلى نهاية شهر آذار حين سُمح لهم بالعودة إلىٰ بغداد .

وقد جرىٰ تخفيض ثان بمبلغ فلسين ، كما توقفت الشركة من استيفاء المائة فلس من الذين لا يصرفون أقل من المبلغ المذكور شهرياً .

تمرد العشائر في جنوب العراق

جاءت وزارة ياسين الهاشمي إلىٰ الحكم في ٧ آذار ١٩٣٥ علىٰ أعقاب وزارة المدفعي الثالثة التي أسقطتها حركة عشائر الفرات الأوسط .

وقد أراد خصوم الوزارة الهاشمية أن يلعبوا الدور الذي لعبه الإخائيون وحزبهم الذي كان يترأسه ياسين الهاشمي في إسقاط الوزارتين وزارة علي جودت الأيوبي الأولى ، ووزارة جميل المدفعي الثالثة فأخذوا يحرّضون أنصارهم من رؤوساء القبائل في التمرد علىٰ السلطة وجمعوا لذلك بعض المبالغ لتوزّع علىٰ الأفراد لإثارتهم .

وفي مايس سنة ١٩٣٥ أعلن الشيخ خوام العبد العباس رئيس عشيرة بني زريج ، والشيخ ريسان الكاصد شيخ قبيلة حچام في سوق الشيوخ أعلنوا العصيان علىٰ الحكومة العراقية في وزارة ياسين باشا الهاشمي الأولى .

وقد شكلت قوة عسكرية لردعهم بقيادة الزعيم بكر صدقي وبإمرته العقيد حسين فوزي آمر منطقة الموصل للقضاء علىٰ التمرد العشائري ، وعند تشكيل القوة ومرورها في بغداد أُمرت بالالتحاق بهذه القوة كضابط ركن للعقيد حسين فوزي ، وبإمرتي أيضاً فصيل مدفعية عيار ٢,٧٥ انج الجبلي المحملة علىٰ البغال ، فتركت بغداد ، وكانت زوجتي حامل يومها ولم أتمكن حتى من توديعها ، وسلكنا طريق الكوت ـ الشطرة ـ الناصرية ، وكان التمرد قد وصل إلىٰ حدود الناصرية[1] ، وكانت عشائر

---

(١) أذاعت الحكومة بياناً رسمياً بذلك في ٢٠ مايس ١٩٣٥ جاء فيه :

قامت العشائر المحيطة بسوق الشيوخ ضد السلطة المحلية وحاصرت مخافر الشرطة واستولت علىٰ بعضها وأقدمت بعض العشائر في أطراف الناصرية علىٰ قطع المواصلات إلا أن الحركات الجوية ومقاومة الشرطة وموقف الرؤساء الموالين حصرت التمرد في سوق الشيوخ ، وعلى إثر وصول النجدات العسكرية باشر رؤوساء المتمردين عرض طاعتهم على الحكومة ، وكان في مقدمتهم =

الأزيرج على وشك أن تحاصر المدينة بقيادة شيخهم (گاطع البطي) ، وكان متصرف الناصرية يومها ماجد مصطفىٰ يقوم باستعدادت لإنقاذ مدينة الناصرية فيما إذا حوصرت حيث يبقى في سراي الحكومة مع أركان الإدارة الذي يقع في وسط البلدة فكدس من المؤن وأحضر بقرة تمدهم بالحليب .

ولما وصلت القوة العسكرية المكونة من فوجين إلى الناصرية هي : فوج المقدم قاسم مقصود ، وفوج المقدم كامل شبيب وشاهدت العشائر الجيش احجمت عن مهاجمة المدينة ولا سيما عشيرة الأزيرج وبقي فوج قاسم مقصود في الناصرية واتجه فوج كامل شبيب إلىٰ سوق الشيوخ .

وفي هذا الوقت صادف فيضان نهر الفرات وأحدثت العشائر فتحات في السدود مما جعل المياه تحيط بمدينة سوق الشيوخ من جميع الجهات باستثناء طريق ضيق علىٰ سدة نهر الفرات فسلكت القطعات الراجلة هذا الطريق أما المؤن والأعتدة فقد هيئنا لها جميع الوسائط النهرية المتيسرة هناك وعهد بقيادتها لي مع ثلة من الجنود لإيصالها إلى سوق الشيوخ بعد احتلالها .

وعندما وصلنا سوق الشيوخ كانت قد سبقتنا عشيرة بني خيگان إلىٰ احتلال المدينة وذلك في مايس ١٩٣٥ ونهبت دوائر الحكومة وخربت وهدمت بعض الدوائر الحكومية وأحرقت المستشفى والمحكمة والسراي والبلدية ونهبت السوق وأحرقته ، وقد عوّضت الحكومة أصحاب السوق فيما بعد ، ووجدنا في شوارع المدينة الخزانات والقاصات الحديدة العائدة للدولة وهي محطمة ومرماة علىٰ قارعة الطريق .

وقد استطعنا بسرعة إعادة سيطرة الحكومة على المدينة فعينا رئيس بلدية جديداً من أهالي سوق الشيوخ وعين مدير الشرطة علي كمال قائمقام للقضاء بصورة مؤقتة وكان قد أعاننا علىٰ استتباب الأمن وإعادة الإستقرار في السوق الشيخ محمد حسن حيدر الذي كان نائباً يومها في المجلس النيابي وبمت إلى آل الطريحي بنسب ، وهيأنا للقطعات العسكرية مكاناً حيث كان في البداية فوج واحد بقيادة المرحوم كامل شبيب ، وكان أحد ضباطه الملازم الثاني عبد الكريم قاسم آمر فصيل ، والملازم عامر حسك آمر فصيل أيضاً ، ثم أُلحق بنا فوج آخر بقيادة محمود حلمي (سوري الأصل) وكان أغلب أفراد هذا الفوج من مجندي الأكراد ولم يستطيع أن يتحمل أفراده الحرارة الشديدة والرطوبة هناك والمصاحبة للأماكن المحاطة بالأهوار فأصيب أكثرهم بمرض الملاريا الذي كان منتشراً هناك لكثرة الأهوار والمستنقعات مما اضطررنا إلىٰ سحبه وإرجاعه إلىٰ مقر قيادته في السليمانية .

وكان ريسان الگاصد قد استحكم في قلعته واعتصم بها وكانت قريبة من مضيفهُ ومياه الفيضان تغمر البساتين المحيطة به مما يتعذر الوصول إليه ، وبقينا مدة نفكّر في طريقة تجبره على الاستسلام ، وقد كلفني آمر الرتل العقيد حسين فوزي بمحاولة رمي قلعته بالمدفعية التي كانت بإمرتي فحسبت حسابي الدقيق على الخرائط التي حصلت عليها من غرفة المستشار البريطاني في متصرفية الناصرية ـ حيث كان في المتصرفية مستشار بريطاني كما هو الحال في كل المتصرفيات الأخرىٰ ويرجع إليه في كل الأمور ـ وحصلت أيضاً على نشرات أخرى عديدة تخص العشائر ، وخرائط تفصيلية للقلاع والمفاتيل وحتى نخواتهم في الحرب ، وأخرى عن الطيور المستوطنة والمهاجرة في تلك المنطقة ، ومجموعة تقارير

= عشائر الغزي والأزيرج والحسينات وباشروا بأنفسهم بإصلاح طرق المواصلات وجريدة البلاد العدد ٥٥٣ بتاريخ ٣١ أيار ١٩٣٥ .

عن الزراعة والأسماك وجميع الثروة الحيوانية والنباتية في اللواء ، والأمراض التي تنتشر فيه وغير ذلك من التقارير التي قام بها ـ على ما يبدو ـ الأخصائيون البريطانيون أثناء الحملة البريطانية ، كما فعل الإسكندر الكبير في الهند ، ونابليون في مصر . فاستفدت من هذه التقارير والنشرات والخرائط في تحديد موضع قلعة حجام ، ووجهت عليها نار المدافع ليلاً فكانت أول طلقة أصابت القنطرة التي تربط المضيف بالقرية ، فاندهش ريسان الگاصد وجماعته حيث كانوا يظنون أنهم في مأمن ومنأى عن نار المدافع .

كما أن الطائرات العراقية المصاحبة للجيش حاولت أن تقصف قرية ريسان ولصعوبة الرؤيا بين البساتين الكثيفة المحيطة بها لم يستطع قائد الرف (موسىٰ علي) وطياروه من إصابة الهدف إصابة مباشرة بل قصفوا قرية أخرى قريبة لقرية ريسان يسكنها الصابئة الذين يقومون بأعمال الحدادة والنجارة في تلك المنطقة ، وقتلوا امرأة واحدة ، وقد زرتهم بعد مدة من الزمن وقد نقلوا لي الحادثة التي أدّت إلى مقتل المرأة وقالوا لم تجري المراسيم الدينية المقتضية لها حيث أن من عادتهم أن من يقتل في الحرب لا يُدفن حسب طقوسهم المتبعة وإنما يدفن بشكل عادي جداً وسبب ذلك أنهم يحذرون جماعتهم بالإبتعاد عن ميدان الخطر !

وبعد أقل من شهر من بدء الحرب تقريباً سلّم ريسان نفسه إلىٰ الجيش فاشترطنا عليه تسليم الأسلحة الموجودة عندهم جميعاً وكانت معظمها من البنادق القديمة والمختلفة الصنع ، وقد بدأ ريسان وعشيرته بالتسليم تدريجياً ، وفي ذات يوم جاءني ريسان بنفسه وقال لي : ما فائدة التسليم ، لأن البنادق التي نسلمها لكم اليوم تباع لنا في اليوم التالي من قبل السلطات المدنية ، وليدلل علىٰ ذلك أتاني ببندقية منقوش عليها بالفضة وقال لي سوف أسلم هذه البندقية مع البنادق الأخرىٰ ، فسلمها أمامي وأخذ وصلاً بها وبعد مرور ثلاثة أيام أتاني بالبندقية نفسها وقال لي : هذا الدليل وقد اشتراها الأفراد من السلطات .

الأمر الذي دعاني أن أرفع تقريراً شفوياً إلى آمري العقيد حسين فوزي وقلت له إذا بقينا علىٰ هذا المنوال فسوف لا نتمكن من جمع السلاح بسنين ، فأبرق برقية إلى السلطات العسكرية العليا بذلك ، فأصدرت الحكومة أمرها بنقل القائمقام علي كمال حيث حامت حوله الشبهات وبقيت القطعات العسكرية في سوق الشيوخ حوالي أربعة أشهر .

وقد زارنا رئيس أركان الجيش الفريق طه الهاشمي بعد استعادة مدينة سوق الشيوخ ، وأقيم له استعراض عسكري بالقطعات الموجودة هناك ، وكان في أثناء زيارته قد نُصبت ثماني مشانق في وسط المدينة استعداداً لإعدام جماعة من الچبايش إدّعىٰ عدد من الشرطة أن هؤلاء سلبوهم أسلحتهم أثناء حركة العصيان ، في حين أنكر المتهمون ذلك ، وقالوا : إن الشرطة هم الذين أودعوا بنادقهم وهربوا ، وأنني لم أحضر الاستعراض العسكري هذا احتجاجاً على نصب المشانق في المدينة ، ولكن هذا الإحتجاج لم يفيد شيئاً فقد شنق هؤلاء الثمانية أشخاص ، وقد افتقدني طه الهاشمي لعدم وجودي أثناء الاستعراض مع القطعات وسأل العقيد حسين فوزي فاعتذر عني بأنني مريض ، والحقيقة خلاف ذلك .

بقينا في مناطق الحركات مدة طويلة ، وسئمنا من الوضع هناك ، ولكي أشغل نفسي من هذه البطالة التي صاحبتنا طيلة مدة إقامتنا هناك ، فأخذت أجمع أنواعاً من الطيور المائية الزاهية المنتشرة في تلك المنطقة ، وفضلاً عن ذلك فقد استعرت عدداً كبيراً من الكتب من مكتبة محمد حسن حيدر العامرة وكانت خير أنيس لي في تلك الفترة ، وكان يشاركني هذه الرغبة العقيد حسين فوزي الذي كان مولعاً بمطالعة الكتب ، وكنّا في الأماسي نجتمع في حديقة البلدية ونتداول الحديث في شؤون مختلفة وقد اغتنمت هذه الفرصة لمهاجمة الساسة في بغداد الذين يقومون بتحريض العشائر لأغراضهم السياسية الأمر الذي سبب وجودنا في هذا الحرّ القائض ، وكان يشجعني على الحديث المرحوم كامل شبيب .

ومما أذكره عن الملازم عبد الكريم قاسم أنني زرته في داره التي كان يسكنها لوحده دون بقية الضباط الذين كانوا يسكنون البيوت جماعات ، وهذه البيوت هي الدوائر الحكومية المخربة التي انتزع العشائر منها الأبواب والشبابيك ، فسألته : أين بلبلك يا كريم فأجابني إني أربّي حصيني (ثعلب) بدلاً من البلابل ، فقلت له : وأين هذا الثعلب ، فقال لي هو في مدخنة الموقد ولما يجن الليل ويسود الظلام يخرج من المدخنة ليأكل طعامه الذي أضعه بالقرب من المدخنة ، فقلت : ومن أدراك أن الثعلب هو الذي يأكل هذا الطعام إذا لم تأكله الفئران إذا أنت لم تراه فقال لي أنني متأكد من أن الثعلب هو الذي يأكل الطعام ، ومنذ ذلك الحين لاحظت عليه الشذوذ بانفراده لوحده وتربيته للثعالب ، وكنت ألاحظ عليه أنه حييٌ وخجول جداً ولا يشاركنا في الحديث .

وعندما انتهت حركات العشائر كتب مقدم اللواء محمود الشهواني قائمة بأسماء الضباط الذين ساهموا في قمع هذه الحركة لمنحهم نوط الشجاعة ونوط الخدمة وكان اسمي من بينهم فذهبت إلى المقدم محمود الشهواني وطلبت شطب اسمي من القائمة وقلت له أنني لم أقم بأيّ عمل من أعمال الشجاعة التي استحق عليها هذا النوط ، كما أنه لا يشرفني تعليقه على صدري في قتال أبناء عمومتي وأبناء خئولتي لأغراض سياسية محلية بحتة ، ولو كان هذا النوط ممنوحاً لي في قتال أعداء الأمة الوطن وهم المستعمرون والطامعون في هذا البلد لكنت أتشرف به ، وحتى نوط الخدمة لا أعتبرها خدمة للوطن بل خدمة لحفنة من الساسة الذين اشتروا الوطن وباعوه .

وخلال وجودي هناك وصلتني رسالة من زوجتي في بغداد تخبرني بأنني رزقت بابنة وطلبت مني في الجواب بتسميتها فأسميتها (سهى) نسبة إلى نجمة سهى التي كان الفلكيون القدامى يلقبونها بمسمار القلك عوضاً عن النجم القطبي .

وبعد استتباب الأمن في سوق الشيوخ تحركت القطعات العسكرية إلى الناصرية واستقر فوج كامل شبيب فيها ، وفي هذه الأثناء جاء أمر نقلي إلى بغداد معلماً أقدماً في مدرسة المدفعية لتعليم الضباط وآمراً لمستودع المدفعية في نفس الوقت الذي يهيء المجندين ويدربهم لمختلف البطريات المدفعية .

وسلمت فصيل المدفعية هناك إلى الملازم علي غالب عزيز ، وكانت مدة بقائي في منطقة الناصرية وسوق الشيوخ حوالي ستة أشهر عدت بعدها إلى بغداد لمزاولة نشاطي السياسي .

يتبع في العدد القادم